من الخزانة الشرقية بقلم حبيب زيات

الخرافات الموضوعة على مجاذيب حمص

قديماً

في كتب البلدانيين والمؤرخين آراء واعتقادات غريبة في تأثير بعض التربة في الطبائع والافهام. ومن ثمَّ كان لبعض المدن عندهم خصائص في تبليد العقول، حتى يغلب على من نشأ فيها التخلُّف والتغفُّل، كبلدة همذان مثلاً. ومع انها منبت قريحة بديع الزمان، والعشّ الذي درج منه رهط من افراد رجال العلم والفضل، كانت تُتَّهم بتوليد الحمق وضعف الافهام. حتى قال بديع الزمان نفسه فيها، لا شك على سبيل الهزل والعبث:

همذان لي بلدٌ أقول بفضله، لكنه من اقبح البلدان،
صبيانه في القبح مثل شيوخه وشيوخه في العقل كالصبيان. (١)

ولما اجاب احمد بن فارس على كتاب ارسله اليه يذمّ فيه الزمان، قال له فيه على مثل هذه الوتيرة: «اثنتان قلما تجتمعان: الخراسانية والانسانية. وانا وان لم اكن خراساني الطينة، فاني خراساني المدينة. والمرء من حيث يوجد لا من حيث يولد. والانسان من حيث يثبت. لا من حيث ينبت. فان انضاف الى خراسان ولادة همذان. ارتفع القلم وسقط التكليف. فالجرح جُبار. والجاني حمار. ولا جنة ولا نار. فليحتملني الشيخ على هناتي. أليس صاحبنا يقول:

لا تلمني على ركاكة عقلي، ان تيقنت اني همذاني» (٢)

ومن المدائن الشامية التي نُسب اليها سوء تأثير التربة في عقول مواليدها، حمص، بلدة القياصرة، ومدفن الصحابة والقواد، وموطن العلماء والزهاد.

---

١) معجم البلدان لياقوت، طبعة اوروبة، ٤: ٩٦١. والبيتان ليسا في الديوان المطبوع بمصر سنة ١٩٠٣

٢) رسائل بديع الزمان، مطبعة الجوائب، ص ١٨١

اشتهرت منذ دخول العرب اليها بكثرة المجاذيب[1] والحمقى من اخلاط العامة. بعد ان سار ذكرها في عهد الرومان والروم بن نبغ فيها من فرائد النساء اللواتي تبوأن عرش الامبراطورية الرومانية نظير: Julia Domna, Julia Mesa, Julia Soémias et Julia Mamea وولدن بعض قياصرة رومة مثل: Héliogabal et Alexandre Sévère

والى حمص ينتمي ايضاً البابا القديس انيقيطس Anicet (١٥٧—١٦٨) والعالم لونجان، وزير زينب ملكة تدمر (٢١٣—٢٧٣) فكيف انقلب التبر صُفرا[2]. واصبح الفخر عَرّا ؟

واذا نظرت الى البلاد، رأيتها تُثري، كما تثري الرجال، وتُعدم (٣

قلنا: ولا تعدم الحسناء ذاما. فلا يضرّ حمص هذه القالة الشنعاء. وقد خرج منها من ذوي الحجى والعقل. وارباب الذكاء. والفضل من تضيق بنا هذه الصفحات لو اردنا تعداد اسمائهم في الاسلام. وحسب حمص فخرًا في القرنين الاخيرين أن منها قام اول من ايقظ الادب العربي بعد رقدته، وانهض جواد الشعر والعلم

١) المجذوب في عرف الصوفية والفقراء من اهل الطرق: «من لا شيخ له. يريدون بذلك انه جُذب الى طريق الخير والصلاح.» (وفيات الاعيان لابن خلكان ٢: ٥٥٦) ثم كثر من هؤلاء المجاذيب ظواهر التنفل والتخليط في الكلام. والنياب عن الوجود. فعُدّوا كالمجانين. وصارت لفظة الجذب او الجذبة مرادفة للجنون. قال ابن تغري بردي في ترجمة الشيخ المعتقد المجذوب عمر البياني المتوفى سنة ٨٦٨ (١٤٦٣/٤ م): «قدم القاهرة ونزل ضيفاً بخانقاه سعيد السعداء. ودام على ذلك دهرًا الى ان ظهر منه نوع من الجنون يسمونه جذبة» (السابع من النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة ليدن، ص ٧٨٥-٧٨٦) ثم تنوسي مدلول اللفظ الاصلي، وغلب عليه معنى الابله والاحمق على الاطلاق. ومنه قول شيخ الاسلام المولى اسعد للشيخ احمد الفاري المتوفى سنة ١٠٤١ (١٦٣١ م) لما انكر عليه حلق اللحى: «استاذكم كان مجذوبا وانتم عقلاء» (خلاصة الاثر للمحبي ١: ٢٦٠)

٢) لا بأس ان نذكّر ان الصفر هو النحاس الاصفر. واليه انتسب يعقوب بن الليث الصفّار، احد المتوارج على الخلافة العباسية، المشهور في القرن الثالث للهجرة. وهذه العبارة اخترناها وتصرفنا فيها بما يليق بالمقام، في تعريب معنى البيت المشهور:

Comment en un plomb vil, l'or pur s'est-il changé ?

٣) البيت لابي تمام. وقبله:

اوض معرّدة، واوض تنجم، منها التي رُزقت، واخرى تُحرَم

بعد كبوته . نظير آل البحري ، وكرامة ، واليازجي ، والحمصي ، من مشاهير المسيحيين ، فضلاً عن بعض ادباء المسلمين . ومن حمص كذلك أسرة المعلم ابرهيم الحوراني . والسيد بولس مسعد البطريرك الماروني[1] . ولو لم يكن لها من المزيّة والمأثرة الا انها انبتت ارومة بيت العلم ، ودوحة الذكاء والفهم ، من نوابغ اليازجيين ، لكفاها فضلاً تتيه به على كل بلد في الشام .

ومما برز فيه ايضاً اهل حمص صناعات النسيج نظير اخوانهم من دمشق وحلب وحماة . ومن متفنني المتأخرين محمد الحمصي النسّاج المعروف بالقتير المتوفى في رجب سنة ٧٩٧ (١٣٩٥ م) قال ابن قاضي شهبة : كان استاذاً في نسج القماش على اختلاف انواعه . وله فهم وذكاء . نسج الصوف الابيض مع الحرير فجاء في غاية الحسن ونسج ايضاً كذلك ملوّناً[2] .

ولا سبيل اليوم الى معرفة هل كان لهذه الخرافة صدى سابق في دولة الرومان والروم . ولم يبلغنا عنها اقلّ ذكر في الآثار الارامية . ويؤخذ من قول ابي

---

١) لدينا رسالة من الصديق صاحب العزة ، الشاعر الالمعي ، قسطاكي بك الحمصي بحلب بتاريخ ٧ شباط (فبراير) سنة ١٩٠٠ كتب لنا فيها : « اما سؤالكم عن تاريخ هجرة جدنا الاعلى » من حمص فلا اعلمه على التحقيق . ولكن حدثني عمي عن جدي عن ابيه ان الجد الاعلى الذي هجر حمص ميخايل مسعد قد هجرها منذ ثلاث مئة سنة وسكن حلب فسمي ميخايل مسعد الحمصي . ثم تنوسي اسم مسعد وبقي اسم ابنه ابرهيم الحمصي . وغلب ذلك على عقب يوسف ثم على اولاده ميخايل ، وجرجي ، ونعمة الله ، وبطرس . ثم على ابنائهم وهم يوسف بن بطرس رحمهما الله وهو والد هذا العاجز . وقد روى السيد بولس مسعد ، بطريرك الموارنة ، انا واياه من اصل واحد . ذهب اخ الى لبنان وظل حافظاً كنيته . وقصد الاخ الثاني حلب . وهذه الرواية من اصدق الروايات لان البطريرك ، رحمه الله ، كان من اعلم الناس باصول بيوتات هذه البلاد . فأحرِ به ان يكون قد نقب عن اصل اجداده . وما ذكرتموه من رواية علامة العصر الشيخ ابرهيم عن عمه ان احد اجداده الكرام هجر حمص فهو قد صرّح بذلك في بيت من قصيدة كان تفضل بها على هذا العاجز يقول منها في مدح حلب :

بلدة مجدها تواصل في الأعـــصار مثل الإعصار في مجراها

الى ان يقول :

ورعى الله ارض حمص وحيّت نسمات الصبا خصيب ثراها
هي فردوسي القديم ، ومنها ثمرات الحياة كان جناها »

٢) الذيل . باريس ١٥٩٦ ، ص ١١٢

الفرج الاصبهاني ان اهل حمص كانوا كلهم من اليمن. ولم يكن فيهم من مُضَر الا ثلاثة ابيات[1]. فهل كان من هؤلاء اليمنيين قوم عرفوا بالبله وقلة الفطنة ؟ وعلى كل ففي ايام عمر بن الخطاب كانت هذه التهمة قد انتشرت بين الناس. ولذلك لما تمّ فتح البلاد كتب عمر، فيما رووا، الى حكيم من حكماء العصر وقال له: صِف لي المدن واهويتها ومساكنها. فكتب اليه: «اما الشام. فسُحب واكام. ورياح وغمام. وغَدَق رُكام. ترطب الاجسام. وتبلّد الاحلام. وتصفّي الالوان. لا سيما ارض حمص فانها تحسّن الجسم. وتصفّي اللون. وتبلّد الفهم. وتنزح غوره. وتجفي الطبع. وتذهب بآفة القريحة. وتنضب العقول.»[2] وهذا الوصف من انكى ما قيل في حمص ولا يخفى ما فيه من التخريف والميل الى الإغراب والمغالاة بمحاكاة اسجاع الكهّان. ولا شك انه من مسموعات المسعودي عن اهل العراق الموضوعة لانتقاص اهل الشام. ومما يدلّ على ضعفه ان الرواة اختلفوا في الحكم على ارض اهل حمص. فذهب بعض المتقدمين الى انها اصح بلدان الإسلام تربة وهواء. وادعى آخرون بالعكس فساد تربتها وهوائها. وسننقل فيما يأتي نص شهاداتهم. ولعل كلا القولين صدى ما كان شائعاً وقتئذٍ من جمال اهل حمص وحماقتهم. اذا صح انه كان فيهم جمال، ولم تكن هذه اللفظة محرّفة عن «خبال» كما هو الارجح. والا فليس في تربة حمص وهوآئها ما يبرّرها هذا التمييز عن سائر الشام.

وقد دفعنا حب الملحة والطرفة، والولع بالتنقيب عن كل أُنف غريب، الى مراجعة اكثر كتب علماء البلدان. وتغلية كل ما طالته يدنا من المصنفات الادبية لجمع كل ما جاء فيها من الاشارات والحكايات عن اهل حمص، وسردها بحروفها حرصاً على ما فيها من الجدّة والنكتة. ولا شك ان كثيراً منها ردّد فيه الآخر صدى ما قال الاول. وزاد فيها البُسّار والقُصّاص ما شاءت قرائحهم من الذيول والفضول. رغبة في الإغراب والإطراب.

ومن اهزل ما وقفنا عليه ان حمص لم تُبتَلَ بهذه الريبة والمصيبة الّا لوجود

١) الاغاني، طبعة بولاق، ١٢ : ١٤٣

٢) مروج الذهب، هامش نفح الطيب، للمسعودي، ١ : ٦٥٥-٦٥٦

حرف الصاد في اسمها . وهو قول البشاري المقدسي بكل جدّ ووقار — وهو اعقل البلدانيين واكثرهم درساً واطلاعاً — «كلّ بلد فيه صاد فاهله حمق ، الا البصرة . فاذا اجتمعت صادان مثل المصّيصة وصرصر فنعوذ بالله .»[1] ولا ندري لمَ اقتصر على ايستثناء البصرة ، ولم يخرج مصر وصور وصيدا وصفد واشباهها فهل كان فيها ، في اعتقاده ، قوم حمقى ؟ وهل ترى انتقل اسم حمص الى مدينة اشبيلية في الاندلس بنزوح قوم من اهل حمص الشام اليها ، أفسد هوآء اشبيلية ايضاً لمكان حرف الصاد في اسمها الجديد . وهل كان في عامتها من المجاذيب والمتغلين مثل ما كان في الوطن القديم . ولا نعلم هل ورّى احد من ادباء الاندلس الى شيء من ذلك . وهذا ابن جبير الرحالة المشهور ، وهو من غرناطة ، غير بعيد عن اشبيلية ، لم يخطر له الالماع الى هذا القبيل مع انه لم ينسَ ان يستعلم اشياخ حمص بالشام حين مروره بها هل كان فيها بيمارستان كما سننقل من لفظه .

وهذه اقوال اهم البلدانيين في جارة العاصي :

« حمص من اصح بلدان الاسلام تربة . وكان في اهلها خبال مفرط . »
(المسالك والممالك لابن حوقل ، طبعة ليدن ، ص ١١٧)

« لا أبله من اهل البحرين . ولا احمق من اهل حمص . »
(احسن التقاسيم للبشاري المقدسي ، طبعة ليدن ، ص ٢٦)

« حمص . البلد شديد الاختلال . متداعٍ الى الخراب . والقوم حمقى . »
(احسن التقاسيم للبشاري المقدسي ، طبعة ليدن ، ص ١٥٦)

« حمص اهلها موصوفون بالجمال المفرط ، والبلاهة . »
(آثار البلاد واخبار العباد للقزويني ، طبعة ليدن ، ص ١٢٤)

« حمص مدينة من اصحّ بلاد الله هوآء . واهلها موصوفون بالتغفل ، والناس يضعون عليهم حكايات هي سوآء والخرافات . »
(مناهج الفكر ومباهج البر لمحمد بن ابراهيم الوراق ، لوندرة Add. 7483, f° 180)

«من عجيب ما تأملته من امر حمص فساد هوائها وتربتها اللذين يفسدان العقل حتى يضرب بحماقتهم المثل . ان اشد الناس على علي (رضه) بصفين مع معاوية كان اهل حمص . واكثرهم تحريضاً عليه وجداً في حربه . فلما انقضت تلك

١) احسن التقاسيم للبشاري ، ص ٢٥-٢٦

الحروب ومضى ذلك الزمان صاروا من غلاة الشيعة حتى ان في اهلها كثيراً ممن رأى مذهب النصيرية واصلهم الإمامية الذين يسبون السلف. فقد التزموا الضلال اولًا واخيراً. فليس لهم زمان كانوا فيه على الصواب.»

(معجم البلدان لياقوت ، طبعة اوربة ، ٢ : ٣٢٨)

« اهل مدينة حمص يوصف عامتهم بقلة العقل. ويحكى عن سوقتهم حكايات شنيعة الخرافات. » (نخبة الدهر لشمس الدين الدمشقي ، ص ٢٠٢)

« سألنا احد الاشياخ بهذه البلدة هل فيها مارستان على رسم مدن هذه الجهات. فقال وقد انكر ذلك «حمص كلها مارستان» وكفاك تبييناً شهادة اهلها فيها ». (رحلة ابن جبير ، ص ٢٥٨)

« حمص اهلها موصوفون بالرقاعة وخفة العقل. »

(تحفة الغجائب وطرفة الغرائب لابن الاثير الجزري ، باريس رقم ٥٨٦٣)

« حمص اهلها موصوفون بالرقاعة وخفة العقل. »

(خريدة العجائب لابن الوردي ، مصر ١٣١٦ ، ص ٣٢)

« حمص اهلها. موصوفون بالرقاعة وخفة العقل. »

(اخبار البلاد لبرهان الدين البقاعي. باريس ٥٨٦٢)

« حمص اهلها موصوفون بالبلاهة. » (اخبار الدول للقرماني ، ص ٤٤٦)

« حمص اهلها موصوفون بالرقاعة ، وخفة العقل. »

(نشق الازهار لابن اياس ، باريس ، ص ١٢٧ ، رقم ٢٢٠٧)

« حمص اهلها موصوفون بالجمال والبلاهة. »

(تلخيص الاثار لعبد الرشيد البكوسي ، باريس رقم ٢٢٦٩ ، ص ٢١)

وهلم جرًا.

ومن هذه الشهادات تتضح كثرة تقليد المؤلفين في الاسلام واقتصار المتأخر على نسخ قول المتقدم باللفظ الواحد ، دون تحقيق ولا استدراك.

وفي كتب الادب نظائر هذه الاقوال. وهي ولا شك حكاية ما كان شائعاً مستفيضاً في وقتها. وقد سمى الحريري في مقامته الحلبية ، وهي السادسة والاربعون ، مدينة حمص « بقعة التركمان » وقال فيها : « اغراني البال الخلو. والمرح الطلو. بان اقصد حمص لاصطاف ببقعتها. واسير رقاعة اهل رقعتها ». وقال

الفنجديهي في شرح هذا القول : « باهل حمص يضرب المثل في الحماقة . وكثرة الرقاعة . وتنسب اليهم حكايات مضحكة . »[1] وقص على الاثر نادرة عنهم سننقلها فيما بعد .

وروى ابن العبري في احاديثه انه قيل لبعضهم : « اعدد لنا المجانين الذين في حمص . فاجاب هذا يصعب لكثرتهم . فان اردتم اني اعدّ لكم العقلاء الذين فيها وهم قليلون . »[2] ومثل هذا الجواب يراد به النكتة لا حكاية الواقع في الحقيقة . فلا يجب ان يؤخذ على ظاهره . وهو ما صرّح به اليونيني لما اشار الى اختلاف الملك الصالح اسمعيل بن شيركوه ، صاحب حمص ، والامير عماد الدين بن المجبر ؛ وتنازعهما في مجلس السلطان الملك الناصر في قتال التتار . قال : « فقال له الملك الصالح انت ، كما قيل ، طويل ، ولحيتك طويلة . فقال له عماد الدين الا اني ما ربيت في حمص » . قال اليونيني : اشار الصالح الى ان الطويل القامة واللحية يكون غالباً قليل العقل . واشار عماد الدين ، رحمه الله ، الى ان من ربي في حمص يكون اجدر بقلة العقل . وهذا انما تقوله العوام لا على وجه الحقيقة . »[3]

وحكى المحبي في ترجمة عبد النافع بن عمر الحموي ، من ادباء القرن الثاني عشر للهجرة انه « ضاق عليه حمى حماة . فاقلع الى طرابلس الشام وسكنها وكان حاكمها اذ ذاك الامير يوسف بن سيفا . فمدحه وتقرب اليه . وكان بطرابلس رجل متصوّف من اهالي حمص يدعى بعبد النافع ايضاً . وكان الامير يوسف يودّه فاتفق ان الامير ارسل لعبد النافع الحموي مالاً من مرتّبه على صدقات السلطنة بطرابلس . فاخذها رسوله الى عبد النافع الحمصي لاشتراك الاسم . فلما وصل الخبر الى الحموي قصد الامير وقال له ان اشتراك الاسم قد يضرّ . وهذه دراهمي ذهبت الى عبد النافع الحمصي . فلا بد من تمييز يكون سبب رفع الاشتباه . فقال له انظر وصفاً مميزاً . فقال له انا اكون عبد النافع الشاعر . يشير الى ان يكون عبد النافع المشهور لانه حمصي . والمشهور ان اهل حمص مشهورون في

---

١) الثاني من شرح المقامات للشريشي ، ص ٢٤٤-٢٤٥

٢) الاحاديث المطربة لابن العبري (المشرق ٢٠ [١٩٢٢] ٧٧٨)

٣) كتاب الذيل على مرآة الزمان لليونيني . خزانة اكسفرد Poc. Or. 132 f°, 47b

العقل لنقصانه فيهم . فضحك الامير . وارسل اليه المال الذي ذهب الى الحصي »[1]

وقد وردت اشباه هذه الاشارات في الشعر . ومنها ما نقله ياقوت الرومي في حديث اسنده الى ابي الحسن المبدع . قال فيه :

« كان الآمـديّ (علي بن الحسن الحموي) يتولى ارزاق الشعراء والمتطلّلين والكتّاب . قال ومنع الحسن بن بشر الكاتب المصري ارزاقه . فعمل فيه قطعة اولها :

إن طغى الآمديّ طغيان مُتْرٍ راشه الدهر ، فالمريش يُحَصُّ
ايها الآمدي ، عقلك قـد دلّ على ان آمد اليوم حمص (٢

ونسب العماد الاصفهاني هذين البيتين لمحمود بن عبـد الجبار الاندلسي الطرسوسي وروى لها بيتاً ثالثاً :

بسواد الرماد تخضب شيباً فلهذا سواده لا يبيضّ (٣

واقبح ما هجي به اهل حمص قول احد الشعراء :

لاتم اهل حمص لا عقول لهم ، جائع غير ممدودين في الناس

والذي دعاه الى هذا الفحش انه كان في حمص في دير مياس عظام شهيد من الشهداء كانوا يستشفون بها من الامراض . فاتفق ان البُطين الشاعر مرض . قال ياقوت : فجاؤا به اليه يستشفي فيه . فقيل ان اهله غفلوا عنه . فبال قدام قبر الشاهد . واتفق ان مات عقيب ذلك . نشاع بين اهل حمص ان الشاهد قتله . وقصدوا الدير ليهدموه . وقالوا : « نصراني يقتل مسلماً ؟ لا نرضى او تسلموا لنا عظام الشاهد حتى نحرقها » . فرشا النصارى امير حمص حتى دفع عنهم العامة . فقال شاعر يذكر ذلك :

يا رحمتا لبُطين الشعر ، اذ لبست به شياطينه في دير مياس
واقاه ، وهو عليل يرتجي فرجاً ، فرده ذاك في ظلمات ارماس
وقيل شامد(٤ هذا الدير اتلفه حقاً ، مقالة وسواس وخنّاس

---

١) الثالث من خلاصة الاثر ، ص ١٠-١١

٢) ارشاد الاريب ٥ : ١٨١-١٨٢

٣) خريدة القصر . باريس ٣٣٣٠ ، ص ١٢٢

٤) يستدلّ من هذا البيت ، ومن كلام ياقوت الذي تقدمه ، ان «الشاهد» كان يستعمل غلطاً في موضع « الشهيد » . وقد ورد هذا الاستعمال غير مرة في كتاب الديارات للشابشتي .

الطُم بالبات ذات مقدرة على مضرّة ذي بطش وذي باس ؟
لكنهم اهل حمص لا عقول لهم ، جاثم ، غير معدودين في الناس (١

واشتق بعضهم من اسم حمص فعلًا للدلالة على التخلّق بالاخلاق المنسوبة الى اهلها. وكما قالوا تبغدد وتدمشق ، قال ابن القطان الشاعر البغدادي يهجو من ابيات له :

كلما قلت قد تبغـــدد قومي ، تحمصوا (٢

ولنأت الآن على سياقة الحكايات الموضوعة على مجاذيب عامة حمص ، نسردها بحروفها على سبيل البلاغ والفكاهة . ولا يخفى ما فيها من الاختلاق والتخريف حبًا بالتسلية والهزل .

١ عرض هشام بن عبد الملك الجند . فاتاه رجل حمصي بفرس . كلما قدمه نفر . فقال هشام : ما هذا لعنه الله؟ فقال : يا سيدي ، ما هو الا فاره . ولكنه شبك ببيطار كان ينعله فنفر(٣ .

٢ قال الجاحظ : مرت بحمص عنز يتبعها جمل . فقال رجل لآخر : هذا الجمل من هذه العنز ؟ فقال الآخر : كلا . انه يتيم في حجرها . قال القزويني ،

منها في كلامه على دير برقوما (مرتوما) قال : « هذا هو الشاهد الذي تزعم النصارى ان له سبع مئة سنة وانه ممن شهد المسيح » (ص ١٣٣) ويحتمل هنا ان يكون الشاهد بمعنى من ادرك المسيح ومن قُتل في سبيله . ولكن هناك امثلة اخرى يحتّم فيها معنى الشهادة لا الشهود . منها قوله في دير باطا : « وشاهده يعرف بربكس (مار بَكُس) » (ص ١٣٣) . ومنها قوله في دير يحنّس بدمنهور في مصر : « اذا كان يوم عيده أخرج شاهده من الدير » (ص ١٣٤) ولبعض الدمشقيين (سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م) قصيدة تنزل فيها باحد غلمان النصارى . وقال من جملة اقسامه فيها :

بالطور ، بالزبور ، بساكن القبور
من شاهد مشهور ، اعطف على المهجور

(تهذيب ابن عساكر ٤ : ٣٥٩-٣٦٠)

والشهاب الدين العمري يذكر ممر آتراعيل « والشاهد فيه مار ميخايل » ومثله في دير مياس « يزعم رهبانه ان به شاهداً من الحواريين » (مسالك الابصار ، ص ٢٨٧ و ٢٣٠)

١) معجم البلدان ، طبعة اوربة ٢ : ٣٠٢-٣٠٧
٢) فوات الوفيات للكتبي ٢ : ٢٩٥
٣) التذكرة لابن حمدون . خزانة بريتش موزيوم Or. 3179 f, 208v

بعد ان روى هذه النكتة : «واما حكومة قاضي حمص فمشهورة . ذُكر انه تحاكم اليه رجل وامرأة . فقالت الامرأة : هذا رجل اجنبي مني وقد قبّلني . فقال القاضي : قومي اليه وقبّليه كما قبّلك . فقالت : عفوت عنه . فقال لها مُري راشدة . »[1]

٣ كان سعيد بن سنان ابو مهدي مؤذن المسجد الجامع بحمص . وكان شيخاً صالحاً . وكان يسحر في رمضان ويقول في تسحيره : « يا أهل حمص اسخنوا تُدبراتكم وعجلوا . عجلوا في اكلكم قبل ان أؤذّن فيسخّم الله وجوهكم »[2]

٤ حكي عن بعضهم قال : دخلت حمص وفي فمي درهم لاشتري به بعض ما اشتهيه . فاذا برجل بباب الجامع جالس على كرسي . وعلى رأسه عمامة مخنّك بها على قلنسوة . وقد لبس فروة مقلوبة بلا سراويل . وقد تقلد بسيف . وفي حجره مصحف يقرأ فيه . وعنده كلب رابض يمسكه بقوده . فسلمت عليه فرد السلام . وقلت له : أترى القوم صلّوا . فقال لي : أوَ انت اعمى . اما تراني قاعدًا ؟ قلت : من انت ؟ قال : انا ابو خالد امام الجامع . وقلت : ما هذه الحلية ؟ قال : ورد رجل زنديق يقرأ السبع الطوال ويشتم ابا بكر الصنابقي . وعمر القراريري . وعثمان بن ابي سفيان . ومعاوية بن ابي غسّان الذي هو من حَمَلة العرش . وزوّجه النبي ابنتهُ عائشة في زمن الحجاج بن يوسف فاستولدها الحسن والحسين . فقلت : ما اعرفك بالمقالة والانساب ! قال : وما خفي عليك اكثر . قلت أتحفظ القرآن . قال نعم . قلت : فاقرأ شيئاً . فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم . واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك . واكيد كيدا . فمهّل الكافرين . أمهلهم رويدا » فصفعته صفعة اسقطت عمامته وبقي التخنك في عنقه . فصاح بالناس قلنسوتي . وقال احملوه الى المحتسب . فاوصلوني الى رجل حاسر حافٍ قد لبس دراعة بلا سراويل . فقال : ما صنع ؟ قالوا : صفع إمام الجامع . قال : يا مسكين ، اهلكت نفسك . قلت : هذا حكم الله فصبرا عليه . قال : ايا احب اليك . سل عينيك

١) آثار البلاد للقزويني ، طبعة اوربة ، ٢ : ١٢٤

٢) كتاب الحمقى والمغفلين لابن الجوزي . باريس ٣٥٤٣ ، ص ١٢٥

وقطع يديك او تدفع نصف درهم. قال: فرفعت يدي وصفعت المحتسب صفعة، ثم اخرجت الدرهم من فمي، وقلت: يا سيدي، خذ نصف درهم لك ونصف درهم لإمامك.»[1]

٥ قال حُنين (بن بلرع المغني الحيري): خرجت الى حمص التمس الكسب بها. وارتاد من استفيد منه شيئاً. فسألت عن الفتيان واين يجتمعون. فقيل لي عليك بالحمامات فانهم يجتمعون بها اذا اصبحوا. فجئت الى احدها فدخلته. فاذا فيه جماعة منهم. فأنست بهم وانبسطت واخبرتهم اني غريب. ثم خرجوا وخرجت معهم. فذهبوا بي الى منزل احدهم. فلما تعدنا أتينا بالطعام فاكلنا. واتينا بالشراب فشربنا. فقلت لهم: هل لكم مغنٍ يغنيكم؟ قالوا: ومن لنا بذلك؟ قلت: انا لكم به. هاتوا عودًا. فأتيت به. فابتدأت في هُنَيّات ابي عباد معبد. فكأنما غنيت للحيطان. لا فكروا لغنائي ولا سُرّوا به. فقلت: ثقل عليهم غناء معبد لكثرة عمله وشدته وصعوبة مذهبه. فاخذت في غناء الغريض فاذا هو عندهم كلا شيء. وغنيت خفائف ابن سريج واهزاج حكم. والاغاني التي لي. واجتهدت في ان يفهموا فلم يتحرك من القوم احد. وجعلوا يقولون: ليت ابا منبه قد جاءنا. فقلت في نفسي ارى اني سأفتضح اليوم بابي منبه فضيحة لم يفتضح احد قط مثلها. فبينا نحن كذلك اذ جاء ابو منبه. واذا هو شيخ عليه خفّان احمران كأنه جمّال. فوثبوا جميعاً اليه وسلموا عليه وقالوا: يا ابا منبه، ابطأت علينا. وقدموا له الطعام وسقوه اقداحاً. وخنست انا حتى صرت كلا شيء. خوفاً منه. فاخذ العود ثم اندفع يغني:

طرب البحر فاعبري يا سفينة لا تشفي على رجال المدينة

فاقبل القوم يصفقون ويطربون ويشربون. ثم اخذ في نحو هذا من الغناء. فقلت في نفسي انتم هنا. لئن اصبحت سالماً لا اميت في هذه البلدة. فلما اصبحت شددت رحلي على ناقتي. واحتقبت ركوة من شراب ورحلت متوجهاً الى الحيرة، وقلت:

ليت شعري ا منى تخبّ بي النا قة بين الدير والصنّبن
محنباً ركوة، وخبز رُقاق، وبقولاً، وقطعة من نرن

١) الثاني من شرح المقامات الحريرية للشريشي، ص ٢٤٤-٢٤٥

لست ابني زادًا سواها من الشا م ، وحسبي ملالة تكفيني
فاذا أُبت سالمًا قلت : حقًا وبادًا لمشر . فارقوني (١

٦ خرج بعض حذّاق المكدّيين من بغداد الى حمص ومعه امرأته . فلما حصل بها ، قال لها : ان هذا بلد حماقة ومال . اني اريد ان اعمل مُنيًا — وهذه كلمة لهم اذا ارادوا ان يعملوا حيلة كبيرة — فساعدتني عليها بالصبر . قالت : شأنك . فقال : كوني برضمك ولا تجتازي بي البتة . واذا كان كل يوم خذي لي ثلثي رطل زبيبًا . وثلثي رطل لوزًا نيًا . فاعجنيه واجعليه وقت الهاجرة على آجرّة نظيفة لاعرفها في الميضأة الفلانية — وكانت قريبة من الجامع — ولا تزيديني على هذا شيئًا . ولا تمرّي بناحيتي . قالت افعل . قال : وجاء هو واخرج جبّة صوف كانت معه فلبسها . وسراويل صوف ، ومئزرًا جعله على رأسه . واعتمد اسطوانة في الجامع بحيث يجتاز عليها اكثر الناس يصلي نهاره اجمع ولا يستريح الا في الاوقات المحظورة فيها الصلاة . واذا جلس للراحة سبّح ولم ينطق بلفظة . ولم يُشعَر به اياماً . ثم تُنُبّه على مكانه . وروعي وعُرف خبره ووضعت العيون عليه فاذا هو لا يقطع الصلاة ولا يذوق الطعام . فتحيّر اهل البلد من امره . وكان لا يخرج من الجامع الا في الهاجرة في كل يوم دفعة حتى يمضي الى تلك الميضأة فيبول ويعود الى تلك الآجرّة وقد عرفها وعليها ذلك المعجون وقد صار مستحيلًا وصورته صورة الغائط الناشف المستحيل . فمن يدخل ويخرج لا يشكّ انه غائط . فيأكله ريثما اوده ويرجع . فاذا تمّت لصلاة العتمة وفي الليل . يشرب كفايته من الماء[٢] . واهل حمص يظنّون انه

١) الاغاني ، طبعة بولاق ، ٢ : ١٢٣

٢) هذه الحيلة هي حيلة الحلّاج المشهور حين اراد ان يطيل الصيام شهرًا ، دون ان يأكل شيئًا . وكان له غلام يقال له النصري كان يصبر عن الاكل خمسة عشر يومًا ، وقد وصف طريقته لصهره حين حُبس في جملة الحلاجية فقال له : «خذ رطلًا من الزبيب العراساني . ورطلًا من اللوز ودُقهما واجعلهما مثل الكُسب واصلحهما صفيحة رقيقة . فاذا جئتني غدًا فاجعلها بين ورقتين من دفتر . وخذ الدفتر في يدك مكشوفًا مطويًا في يدك طيًا مدوّرًا من غير كسر ليخفى ما فيه . فاذا خلوت بي ولم ترَ من يلاحظني . فاجعل ذلك تحت ذيلي وانصرف فاني آكله سرًا واشرب الماء اذا تمضمضت للظهر . فيكفيني خمسة عشر يومًا اخرى . »
(نشوار المحاضرة للتنوخي ١ : ٨٠-٨١)

لا يذوق الماء ولا الطعام وانه طاو تلك المدة . فعظم شأنه ومحله عندهم . وقصدوه وكلموه فلم يجب . واحاطوا به فلم يلتفت . واجتهدوا في خطابه فلزم الصمت والعمل . فزاد محله عندهم حتى انهم كانوا اذا خرج للطهور جاؤوا الى موضعه فيتمسحون به . ويأخذون التراب من موضع مشيه . ويحملون اليه المرضى فيمسح يده عليهم .

فلما رأى ان منزلته قد بلغت الى ذلك وكان قد مضى على هذا الفعل سنة . اجتمع في الميضأة مع امرأته وقال اذا كان يوم الجمعة كما تعلمي الناس فتعالي فاعلقي بي والطمي وجهي وقولي لي : يا عدو الله . يا فاسق . قتلت ابني ببغداد وهربت الى هنا . وجئت تتعبد وعبادتك مضروب بها وجهك ؟ ولا تفارقيني واظهري انك تريدين قتلي بابنك . فان الناس يجتمعون عليك . وامنعهم انا من اذيتك واعترف باني قتلته وتبت وجئت الى هنا للعبادة والتوبة والندم على ما كان مني . فاطلبي قَوَدي باقراري وحملي الى السلطان . فسيعرضون عليك الدية ولا تقبليها او يبذلوا عشر ديات . او ما استوى لك بحسب ما ترين من زيادتهم وحرصهم . فاذا تناهت عطيتهم في افتدائي الى حدّ يقع لك انهم لا يزيدون بعده شيئاً . فاقبلي الفداء منهم واجمعي المال وخذيه واخرجي من يومك من البلد الى طريق بغداد فاني سأهرب واتيمك .

فلما كان من الغد جاءت المرأة فلما رأته فعلت به ما قال لها ولطمته وقالت المقالة التي علّمها . فقام اهل البلد ليقتلوها . وقالوا : ياعدوة الله هذا من الابدال . هذا من تِرام العالم . هذا قطب الوقت . هذا صاحب الزمان . هذا هذا . فاومأ اليهم ان اصبروا ولا تنالوها بسوء . فصبروا وأوجز صلاته ثم تمرّغ في الارض طويلاً ثم قال للناس : هل سمعتم لي كلمة منذ أقمت فيكم ؟ فاستبشروا لسماع كلامه . وارتفعت صيحة عظيمة وقالوا لا . قال : فاني انما اقمت عندكم تائباً مما ذكرته وقد كنت رجلاً في زيغ وخسارة فقتلت ابن هذه المرأة وتبت وجئت الى ههنا للعبادة . وكنت محدّثاً نفسي بالرجوع اليها وطلبها لتُقيدني خوفاً من ان لا تكون توبتي قد صحت . وما زلت ادعو الله تعالى ان يقبل توبتي ويمكنها مني . الى ان أجيبت دعوتي . وقبل الله توبتي لما جمعني واياها ومكنها

من تَرَدّي . فدعوها تقتلني . واستودعكم الله تعالى . قال: فارتفعت الصيحة والبكاء . وقال له هذا: يا عبد الله ادعُ لي . وقال هذا : ادعُ لي . واقبلت المرأة بين يديه وهو مارّ الى والي البلد . وهو يمشي على تأنٍ ورفق ليخرج من الجامع الى دار الامير فيقتله بابنها . فقال الشيوخ: يا قوم لِمَ ضللتم عن مداواة هذه المحنة وحراسة بلدكم بهذا العبد الصالح ؟ فارفقوا بالمرأة وسلوها قبول الدية . ونجعلها من اموالنا . فاطافوا بها وسألوها فقالت: لا افعل . فقالوا: خذي ديتين . فقالت : شمرة من ابني بالف دية . فما زالوا حتى بلغوا عشر ديات . فقالت : اجمعوا المال فاذا رأيتـه . ان طاب قلبي بقبوله والعفو عن الدم فعلت . والّا قتلت القاتل . فقالوا نعم . فقال الرجل: قومي عافاك الله ورديني الى موضعي من الجامع . قالت: لا افعل . قال: فذاك اليك . فما زالوا يجمعون الى ان جمعوا مائة الف درهم . وقالوا : خذيها . قالت: لا اريد الا قتل قاتل ابني . آثر في نفسي . فاقبل الناس يرمون ثيابهم وارديتهم وخواتمهم . والنساء بحليهن . والرجال كل يرمي بشيء من متاعه . ومن لم يتحمل من ذلك الفداء كان في امر عظيم وكأنه قد خرج من الدنيا . فاخذته وابرأته من الدم وانصرفت . فاقام الرجل في الجامع اياماً يسيرة حتى علم انها قد بعدت . ثم هرب في بعض الليالي . وطُلب من غد فلم يوجد ولا عُرف له خبر حتى انكشف لهم انها حيلة عملها بعد مدة طويلة .»[1]

وهنالك حكايات اخرى عديدة اشد حماقة مما تقدم لا يزال الى اليوم بعض الشيوخ والعجائز يتناقلونها ابّاً عن جد على سبيل التسلية والفكاهة في نسبة البله والتغفل لعامة حمص . وقد سمعنا عنها بدمشق في زمن الصبوة نوادر في غاية السخف والغرابة كانت تستعين بها الامهات على تنويم الاطفال في ليالي الشتاء الطوال .

---

١) نشوار المحاضرة ١ : ٢٧٧ - ٢٨

خطايا الروم الملكيين بحلب

في القرن السابع عشر

من شروط الاعتراف عند النصارى ما يسمونه « فحص الضمير » لتذكر الآثام والذنوب. ومن خشي الغفلة والنسيان استعان بمراجعة بعض كتب الصلاة ، وفيها صفحات عُدّدت فيها الوصايا الدينية وما ينجم عن مخالفتها من ضروب المعاصي. وهي ما تلقّنه الشرقيّون عن الافرنج ، بعد دخول المرسَلين اللاتين حلب في الثلث الاول من القرن السابع عشر. ولم نقف على شيء منها في كل ما مرّ بايدينا من الاوراق والمخطوطات في الاديار والبيع والخزائن العامة ، سوى في مجموع واحد في خزانة باريس رقم ٣٠٤١ ، تتقدمه فصول مقتبسة من كتاب في الطب جاء في آخر الورقة السابعة والثلاثين منه هذه الخاتمة :

« تم هذا الكتاب المبارك يوم الاربعا سادس شهر تشرين الثاني سنة سبعة آلاف ومايتين وثمانية لكون العالم (١٦٩٧ م) وهو برسم الشماس جرجس بن سفرشاه الدربيي. الله يجعله عليه مبارك امين امين امين »

وفي المخطوط خرم باوله. وتبلغ اوراقه ١١٨ ورقة. كُتب في الاولى منها :

« قد دخل في ملك الراجي غفور رب العباد الفقير انطون ابن جبرايل لباد سنة ١٧٥٦ »

وهو من اهل حلب.

وتلي الورقة السابعة والثلاثين بعض قصص وحكايات ، ومدائح وصلوات نصرانية ، وتعليقات شتى . لا تخلو من بعض الفائدة في تاريخ الروم الملكيين. لاشتمالها على اسماء من نشأ في حلب او مرّ بها من الرعاة والرعية . وردت في تضاعيف الادعية التي اعتاد الروم الاجهار بها في مختلف الصلوات لكل ملوكهم ورؤسائهم والمحسنين اليهم و« سائر خدام كنيسة المسيح ». وبعد ان نقل الكاتب الصورة المصطلح عليها عندهم الحقها بتعداد من تعاقب على كنيسة حلب منذ القرن السادس عشر وقال :

« اذكر يا رب رؤساء الكهنة والكهنة والشمامسة الذين ارتسموا على هذه الكنيسة

المقدسة وخدموها الى آخر حياتهم . وهم هولاي : الاسقف غريغوريوس . الاسقف ماكاريوس . الاسقف سيلاون . البطريرك افتيموس . البطريرك ماكاريوس . المطران مطروفانس » (ص٩٠)

ويلي هذه التذكارات اسماء كهنة ورهبان وعلمانيين من رجال ونساء استغرقت نحو ست صفحات . بينها اسماء المطارنة ملاشيا ، وغبريل ، وارميا ، واثناسيوس ، وسلفستروس ، وجراسيموس ، وملاتيوس . والبطريركين نافيطس وكيرلس . وهما اللذان تنازعا الرئاسة بعد وفاة مكاريوس الزعيم جد كيرلس . والكتاب مخطوط في زمن هذا الاخير . ومن دواعي الاسف ان اسماء الرهبان والكهنة والشمامسة وغالب الاعيان مسرودة دون القاب ، فلا تستمد منها فائدة تاريخية ولولا ذلك لكان لكنيسة حلب منها مصدر من اوثق المصادر .

والاسقف غريغوريوس الذي بُدئ به في الذكر هو اول من يُعرف من اساقفة حلب بعد القرن العاشر . وهو ابن فُحيل . واصل اسرته من كفربهم في جوار حماة ، تولى الكرسي سنة ١٥٩٠ ، وتوفي في حماة سنة ١٥٨٢ ، فهو اطول الاساقفة ولاية . وقام من بعده مكاريوس بن خلف الصاجاني ، ومات سنة ١٥٩٩ واختلف الحلبيون من بعده ، فانتدب البطريرك يواكيم زيادة للنيابة سيلاون اسقف مرعنيثا . وبعد سبع سنوات تنحى للمطران ملاتيوس كرمة الحموي المنتخب سنة ١٦١٢ وهو نفس البطريرك افتيموس . وخلفه ملاتيوس الزعيم سنة ١٦٣٤ على كرسي حلب . وسنة ١٦٤٧ على الكرسي الانطاكي . وهو المشهور باسم البطريرك مكاريوس الحلبي . وقلد المطرانية بعده مطروفانس ابن القسيس بشارة الحلبي المتوفى سنة ١٦٥٩

وفي كل هذه الشروح التي اوردناها شاهد قاطع بان المخطوط حلبي القلم والصنعة . وان ما جاء فيه من ذكر الخطايا والمحرمات في الاوراق ٧٢ الى ٧٨ هي صدى ما كان يرتكب منها بحلب في القرن السابع عشر . ولا يخفى ما في سياقتها من وصف اخلاق القوم ، وعاداتهم ، ومياقم ، وشهواتهم ، واساليبهم في المعيشة والتربية . وما تسلل اليهم بطريق العدوى والتقليد من بدع الخوارج عن الدين .

ولا شك ان الكاتب هو احد كهنة حلب . سمى هذه الخطايا التي عددها

« حرامات » وبدأ منها بالسكر وشرب العرق وهو الوباء الذي فتك دائماً بالشاميين وخالط منهم اللحم والدم وقد شهد البطريرك اثناسيوس الدباس ، وكان مقيماً بحلب وتوفي فيها سنة ١٧٢٩ ، انهم كانوا لا يفارقون آنية العرق والخمر حتى في الكنيسة ولذلك اوصى في منشور له « ان لا يدخل الكنيسة رجل او امرأة حاملين في عبّهم الخمر والعرق لئلا يجعلوا بيت الله حانوتاً لاسباب الشرور ». (١ وكان قوم لا يكفّون عن الشرب ولو في جوار القبر المقدس نفسه . ولذلك قال الكاتب « الذي يحجّ للقدس الشريف ويشرب هناك عرق ونبيذ حرام » وقد حرّم بيعها مطلقاً . ولكنه لم ينهَ عن شربها الا في يومي الاربعا والجمعة فقط . وسكت عن سائر ايام الاسبوع . وهو غريب . وكان لهذين اليومين عندهم ، وهما من ايام الصيام حرمة شديدة . ولذلك منع فيهما ايضاً تناول الطعام قبل صلاة التاسعة . واكل السمك وشرب النبيذ على مدار السنة . والدنوّ من الازواج وضرب الطبول .

وبعد العرق حرّم « اكل الافيون والكلس » وهذه اول مرة طرق سمعنا ذكر الكلس بين المخدرات . ويظهر ان اول من احدث اكل الافيون في الشام هو ابو السعود الدمشقي المعروف بابن الكاتب . قال المحبي : « ادّاه ولعه وغرامه الى قتل نفسه . قيل انه اكل سبعة دراهم من الافيون وعوجل فلم ينفد علاجه . ومات من ليلته . وهو الذي احدث هذه الغطة بدمشق وكان الناس عنها غافلين . وبعد ذلك تبعه في فعلها اناس . . . وبالجملة فقد فتح ببدعها باباً شنيعاً . وارتكب امراً فظيعاً . وكانت وفاته في رمضان سنة ست وخمسين والف (١٦٤٦ م) (٢ . واما الكلس فبعد لأي وتنقيب طويل عثرنا على ما دلّنا ان هذه الشناعة كانت وتتشذ معروفة عند بعض مسلمي حلب . وعنهم اخذها ، دون ريب ، بعض جهّال النصارى في جملة ما تلدوهم فيه من الشهوات والقبائح وقد ورد ذكرها في ترجمة الشيخ احمد القاري المتوفى سنة ١٠٤١ للهجرة (١٦٣١ م) وهو ممن ادرك الشيخ المجذوب ابا بكر الحلبي واقام عند ضريحه . قال المحبي :

« وقد كان الزوار لمرقده الشريف لا يحصى عددهم . والصدقات تتوارد عليهم وهم لا يدّخرون مقدارها . ولا يستطيعون ان يشتروا ماعوناً يطبخون فيه اعلية الجذب عليهم . وكلهم

١) مجموع صغير في مكتبة دير الشير (مار جاورجيوس) للرهبان الطرسين

٢) خلاصة الاثر ١ : ١١٨

عذّو اللحى . يلبسون المرقّعات ويفترشون جلود الغنم . ويأكلون الحشيش والكلس . وبعض المجاذيب منهم يشرب الخمر والعرق . »[1]

ومن هذا المثال يتضح انقياد فريق من النصارى الحلبيين للتشبه بجيرانهم من المسلمين فيما انفردوا به من الخصائص والعادات والاهواء . وربما سرت هذه العدوى الى افراد من رجال الكنيسة ، فكانوا يتبعون احياناً امثلتهم وطرائقهم دون اقل استرابة او تحرز . وقد وقفنا في خزائن الثاثيكان على « كنّاش » عجيب بقلم غريغوريوس بن فضيل السابق الذكر « خادم كرسي حلب والقصير والسويدية » جمع فيه بين الجد والهزل . وضمّنه كل غريبة ونادرة . وخلط بين سِيَر القديسين والخرافات والصلوات . وكتابة الحروز والطلسمات . واستقراء الادوية والصفات كأنه احد شيوخ الطُرُق . وكان ، لسلامة صدره وغلبة الغفلة عليه ، لا يتحرج من الحلف باسم الله ، وتلاوة الادعية لاستخراج التابع والتابعة من الجنّ بعد ان « يكتبها بمسك وزعفران . ويكون البخور عاقداً » . فما الظن بعد ذلك بمن كان في طاعته من الرجال والنساء !

وقد عُرف اهل حلب بالميل الى الطرب وسماع الغناء والرقص والزفن . ولذلك كثر في الكتاب تحريم المغاني والطبول والزمور والضرب « بالطنبور والقيق . والمعزول . والشبابة . والرباب والدفوف وجميع آلات المغاني » . ولا شك ان سبب هذا التحريم كان ما يبعث عليه اللهو والغناء من السرور والخفة وطيب النفس ، والاختلاط ، والافراط في الشرب ، والخروج عن الوقار ، وكثرة الانفاق على الافراح والاعراس . وهو ما صرحت به غير مرة مناشير البطاركة في ذلك العهد وتابعهم عليه الكاتب بقوله « الكلفة على الاعراس والخطبات حرام . الكلفة على الولايم والمزايم حرام . العبور للعرس الذي فيه طبول وزمور ومغاني حرام » وقد ضيقوا على العرائس كل التضييق . وبعد ان حددوا قيَم الهدايا لهن ، قال البطريرك يواكيم جمعة « لا نقش . ولا حنة . ولا ماشطة ولا مغنية مسلمة »[2] . وزاد البطريرك اثناسيوس كرمة « لا يعملوا غسل للعروس ولا اكل ولا شرب ولا سكر ولا لعب . ولا ينقشوا العروس

---

١) خلاصة الاثر ١ : ٢٦٠

٢) منشوره في كتاب الفنداق رقم ١٠٩ ، في مكتبة دير الشرفة المقدس

ولا يحتوها. ولا يزخرفوا وجهها بالماشطة ولا يزينوها» (maquillage) ومثله قول الكتاب: «اكليل العروس وهي منقشة بحناية حرام . اكليل العروس وهي مزينة بالماشطة. وتدهب شعرها حرام» وفي هذه العبارة الاخيرة شاهد صريح بانهم كانوا يصفرون الشعر بماء الذهب . وهو غريب . وقد حرموا كلهم الصلاة على العروس خارجاً عن الكنيسة خلافاً لتساهلهم اليوم.

وعلى ذكر الاعراس والزواج كانوا يرون وقتئذٍ ان «الذي يتزوج امرأة ثانية اذا تقرب قبل السنتين حرام. الذي يتزوّج امرأة ثالثة اذا تقرب قبل الخمسة سنين حرام» ولا ندري من اي شرع او لاهوت استمدوا هذا القضاء الغريب. ونظيره دعواهم ان الدنو من النفساء: «اذا جاءت صبي قبل الاربعين يوم حرام. واذا جاءت بنت قبل الثمانين حرام» وهذا لا محالة من احكام قراقوش.

ومما تشددوا فيه ايضاً الالعاب . فعدّوا من الخطايا «اللعب بالرند (النرد) . والصطرنج . والمنقلة . والورق . والقمار . والكلة . والطاب . ودكة» ولا ريب انهم حرموها لكثرة المقامرة بها.

ومن المآكل التي نهوا عنها «اكل لحم الضحية . والخنيق الذي افترسه وحش . ولحم الخنزير المقتول خنيق. واكل السمك يوم سبت العازر. واكل السمك يوم عيد البشارة اذا اتفق في جمعة الآلام. واكل الزلاطين وباقي الزهوءات في صيام الكبير». ويدخل فيها ايضاً «الفطور قبل القداس يوم الاحد والاعياد السيدية . وشرب الماء والصلاة قايمة». وكانت ايام الآحاد والاعياد عندهم في غاية من التبجيل والتقديس ، ولذلك حرموا فيها ايضا دخول الحمام.

وكذلك كانوا يعظمون النذور ويرون «ان تأخيرها حرام. وان الذي يندر ان يسعد ولده في كنيسة غير كنيسة بلده حرام. والذي يندر ان يحلق راس ابنه في دير او مزار حرام. والذي يندر ان يصوم لمار ميخايل او لبعض الملائكة حرام». وبالاجمال «ان النذر بغير كنيسة الارثودكسيين حرام»

ويظهر ان تزييف النقود وقرضها كان وقتئذٍ جارياً بحساب . ولذلك حرموا «طبخ الذهب والفضة . وحفر سكة الرغل . وقص الدراهم . وشترى القصاصة . وشترى الدرهم الرغل وتقييضه . وتنقيد درهم الرغل»

ومن انواع السرقة التي نهوا عنها خصوصاً « سرقة علف البهائم . ونبش القبور . وتشليح الموتى اكفانهم » ومنعوا «الصدقة من السرقة » . وهو كقول ابي عبد الله الضرير الابيوردي:

كسارقة الزمان من كرم جارها ، تزود به المرضى ، وتطمع في الفضل

ومع ان الكنيسة كانت كثيراً ما تضطرّ للاستدانة برهن آنيتها لدفع المغارم والمصادرات والمظالم قالوا «اذا تدين نصراني من نصراني حرام» ولعل ذلك لفحش الربا وتتنزه وهم قد نهوا عنه مطلقاً.

ومن المحارم عندهم «السحر والتنجيم . وفتح الفال . وضرب الرمل . وتصديق الحمامات وتفسير الاحلام . والوقوف على المزعبرين . والوقوف على خيال الابزار» . وهذا الخيال هو ما يعرف عند العامة باسم « قراقوز » . وكان يقال له قديماً خيال الظلّ . ولم أرَ لاحد كلاماً عليه . فلا بأس ان نتوسع هنا في تعريفه قليلاً . وهو نوعان : خيال جعفر الراقص باسم من اخترعه ، وخيال الازار . وفي شفاء الغليل للخفاجي خيال الازاد بالدال (ص ٥٠) وهو غلط فليُحرَّر . واول ذكر ورد له ، فيما وقفنا عليه ، في القرن الثاني من العصر العباسي . وكانوا يمثلون فيه صور الرجال والنساء على سبيل العبث واللهو او الهجو . ولما تهدد دعبل الشاعر المشهور عبادة المخنّث بالهجاء قال له عبادة : « والله لئن فعلتَ لاخرجنّ امك في الخيال »[1] . واكثر ما كان يتخذ في المراسم والاعياد وايام المهرجان . «وكان الملك المعظم مظفر الدين صاحب اربل المتوفى سنة ٦٣٠ (١٢٣٢/٣م) يبالغ في الاحتفال بمولد النبي ويتقدم بنصب قباب من الخشب . كل قبة اربع او خمس طبقات . . . وفي كل قبة جوق من المغاني . وجوق من ارباب الخيال ومن ارباب الملاهي . . . فكان مظفر الدين ينزل كل يوم بعد صلاة العصر ويقف على كل قبة قبة الى آخرها ويسمع غناءهم . ويتفرج على خيالاتهم . وما يفعلون في القباب »[2] .

ومعلوم ما يتطرق عادة الى ملاهي العامة من قلة التصوّن ، والتدرج في اطراح الحشمة والحياء . والاسترسال في فنون المجون . فما ابطأ الخيال ان اصبح

١) كتاب الديارات للشابشتي ، نسخة برلين ، ص ٨١

٢) الاول من وفيات الاعيان لابن خلكان ، ص ٥٥٢-٥٥٣

مسرحاً للخلاعة والخيال. ولذلك سبق المسلمون النصارى في تحريمه احياناً . وفي سنة ٨٥٥ (١٤٥١ م) في ذي القعدة طلب الملك الظاهر جقمق اصحاب خيال الظل « وحرق جميع ما معهم من الاشخاص المصنوعة للخيال. وكتب عليهم قسائم بعدم عودهم الى فعله .»[1]

وكان يقال لمن يتعاطى الخيال «خيالي» ومن بديع التورية فيه قول الشاب الظريف التلسماني يتغزل في مليح خيالي:

خيالي اخاف الهجر منه ولست اراه يرغب في وصالي
وكنتُ عهدتني قدماً شجاعاً فمالي صرت افزع من خيالي.[2]

ومن المحرّمات التي تنبه عليها « كتبة الحروز » وقد سبق ان مطران حلب غريغوريوس بن فضيل كان لا يتأثم منها . ويظهر ان عادتها لم تزل من بعده ، وبقيت الى ايام البطريرك اغناتيوس عطية فاشية بين الكهنة والعوام. وقد اشار اليها المجمع الملتئم في دير السيدة في الراس بجوار بعلبك بتاريخ اول حزيران (يونيو) سنة ١٦٢٨ حساباً شرقياً. وهذا نص كلامه عليها بلفظه:

« كان لهم عادة ردية ان الكهنة يكتبوا الحروز . والعوام يعلقوا الحروز والتعاويذ على روس اولادهم . ويقرروا صلاة السيدة ويعلقوها على اولادهم وكثير من المسيحيين . ويصدقوا اقوال المنجمين والرقابين . وربما انهم رقموا رقومات مثل الاسم . ويفتحوا الفال . ويحضروا الى عند السحرة . فأن الآن لا يجوز فعل ذلك لان الكتاب الالهي يقول لا يكون فيكم من يفتح الفال ولا من يقول بالرقى . ولا من يكتب الحروز . ومن فعل ذلك ان كان كاهن يقطع من كهنوته . وان كان علماني يفرز من بيعة الله فمن فعل بخلاف ناموس الله جماعة السينودس تحرمه »

ومنعوا ايضاً « الحزن على الميت . وتكفين الميت بالحرير والولولة خلف الميت . ولبس الازرق والاسود على الميت ». وجاء مثل ذلك في منشور البطريرك اثناسيوس الدباس المقيم بحلب الآنف الذكر قال: « لا تلبس النساء السواد على امواتهن . ولا يتغطين بملايا سود وملونات . ولا يولولوا كالوثنيات الذين ليس لهم رجاء خلاص »

ومن الغريب انهم لم يشيروا الى عادة النساء في زخرفة الوجه وتطريته بانواع الطلاء . واقتصروا على تحريم ذلك على العرائس كما تقدم. ولكنهم خصوا

---

١) حوادث الدهر لابن تغري بردي ، طبعة ليدن ، ١ : ١١٧ ؛ والتبر المسبوك للسخاوي ، ص ٢٥٣

٢) الخاتمة من المنهل الصافي لابن تغري بردي ؛ باريس ٢٠٧٣ ، ص ١٢٢

بالذكر «تقطيع حواجب المرأة بالملقط» وقالوا انه حرام. وهو الوبآء الذي هبت اليوم ريحه من جديد في الغرب، واخذ بالانتشار في الشرق عائداً اليه، بعد ان بدأ منه. لان نساء الجاهلية كنّ يعرفنه بدليل ورود ما يعبر عنه في اللغة. يقال نتص الشعر تنتيصاً وتناصاً اذا نتفه. ونتصته الماشطة بالمناص. قال الراجز:

يا ليتها قد لبست ومواما ونتصت حاجبها تناصا

وفي الحديث: «لُعنت النامصة والمتنمصة»[1]. ويشبه ذلك «الدقاق بالابرة في جسم الانسان» وهو الوشم. وفي الحديث عن علقمة عن عبدالله «لعن الله الواشمات والمستوشمات»[2].

ومن اعجب ما عدّوه من الذنوب «قص اللحية» وهو مما يدل على ان النصارى كانوا في القرن السابع عشر يرخون لحاهم عملاً بالحديث «أحفوا الشوارب واعفوا اللحى». وللحى في الاسلام تاريخ ممتع. لعلنا نتفرغ يوماً لكتابته.

وآخر ما ختم به هذه المحرمات «شرب الدخان» ولا شك انه امتُثِل فيه امر السلطان مراد فاتح بغداد (١٦٢٣-١٦٣٩ م) قال المحبي:

«ومن الحوادث في ايام سلطنته تبطيله الفتوات في جميع ممالكه. والمنع عن شرب التبغ. بالتأكيدات البليغة. وله في ذلك التحريض الذي ما وقع في عهد ملك ابداً»[3]

ويظهر ان هذا المنع ظلّ نافذاً الى ما بعد وفاته. وكان من اراد التدخين يحتاج الى الاستتار. قال المحبي:

«وحكى لي والدي قال اخبرني المولى العلامة الشهاب الخفاجي وانا بمصر في سنة ستين والف (١٦٥٠ م) انه كان في يوم من الايام في مجلس العلامة الحسيبي نقيب الاشراف الرفيع المقام مع جماعة من الفضلاء. وزمرة من الاماجد النبلاء. فاحتجب الشهاب عن المجلس لاجل الدخان. وكان المنع عنه قد حصل من حضرة السلطان. ولما عاد الى المجلس انشد هذين البيتين. وهما نظم وقتهما من غير مين:

اذا حُرِّم الدخان فلا تَلُمنا وجُد بالعفو يا روض الاماني
تريد مذنباً من غير ذنب وهل عود يفوح بلا دخان

---

١) اساس البلاغة للزمخشري، طبعة الدار، ٢ : ٤٧٨

٢) صحيح البخاري ٧ : ٥٨

٣) خلاصة الاثر ٤ : ٣٢١

قال فاجاب الغيب في الحال على سبيل الارتجال :

اذا شرب الدخان فلا تلمني على لومي لابنـآء الزمان
اريد بهذبًا من غير ذنب كريح المسك فاح بلا دخان . »(١

وبقيت هنالك محرّمات اخرى لم نشر اليها ولا طائل فيها وهي مما احلّه الله . ولذلك كتب احدهم ما يأتي على سبيل الانكار والهزء والطنز :

« الذي بيفطر ويتغدا ويتعشا حرام . الذي يشرب مـا اذا عطش حرام . شرب القهوة حرام . واذا نفس الانسان ونام حرام . اذا نام بلا بابوجه حرام . واذا ساله جواب ورده حرام »

ومما تقدم تتضح فائدة درس مثل هذه المخطوطات وما فيها من الذيول والتعليقات ، وهي شاهدة بكثرة ما اخذه النصارى عن الاسلام بطريق المعاشرة والجوار . وحبّذا لو تفرغ احد الادباء لتتبع نظـائر هذه الآثار في الاخلاق والآداب منذ سقوط دولة العلميين الى قدوم المرسلين اللاتين في القرن السابع عشر .

(١ خلاصة الاثر ٦ : ١٧٩

ايام السبوت بدمشق

في عهد العباسيين

كانت ايام الاسبوع قديماً مقسمة عند اقوام على اقسام من اللذة والاستمتاع بطيب العيش والتصرف في اطوار الحياة. فكان يوم السبت منها مخصصاً للصيد والشراب والخروج الى البساتين والمتنزهات. ولذلك قال احد من نظم خصائص ايام الاسبوع :

لنعم اليوم يوم السبت حقاً لصيد ، ان اردت ، بلا افترآء (١

ويظهر ان اختيار هذا اليوم للقصف والمنادمة على الشراب ، والبزوز الى الحدائق والرياض ، كان شاملاً في غير دمشق اكثر مدائن الشرق . ولعل عادة الاصطباح فيه مأخوذة عن الفرس. فقد حكى المسعودي انه كان لهم يوم بهران او يوم رام ينقطعون فيه لمعاقرة المدام. وفيه يقول الشاعر :

باكر بنا لذة المدام في يوم سبت ، ويوم رام
شريطتي فيه ان تراني ، وقت الضحى ، فاتر الكلام(٢

ولذلك كان اهل الطرب والترف وعشاق الصبوح في بغداد يعدّون يوم السبت وقفاً باجمعه على الشرب والسكر لا يجوز في شرع الفتوة ان تُهمل سنّته. وروي عن عبدالله بن العباس ، حفيد الربيع ، وزير الرشيد والامين ، أنه دخل على علي بن عيسى بن جعفر الهاشمي في يوم النصف من شعبان ، وهو يوم سبت ، وقد عزم على الصوم . فاخذ بعضادتي باب مجلسه ثم قال له متعجباً : يا أميري :

تصبح في السبت غير نشوان وقد مضى نصف شعبان ؟

وهو القائل في احد ابياته :

يوم سبت ، فصرّفا لي المدام واسقياني لعلني ان انامـا (٣

وقد سبقه ابو نواس الى ذكر يوم السبت في خمرياته فقال في احداها :

جاءتك من بيت خمّار بطيئتها فراسل شعاع الشمس ترتد . . .

---

١) ياقوت : ارشاد الاريب ٣ : ٨١

٢) مروج الذهب ، هامش فتح الطيب ، ٢ : ٦٦

٣) الاغاني ؛ طبعة بولاق ، ١٧ : ١٢١ و ١٢٤

فلم تزل في صباح السبت تأخذها والليل اجمه ، حتى بدا الاحد (١

وللبحتري ابيات كتبها الى المبرّد ، وقال له فيها :

يوم سبت وعندنا ما كفى السحرَ طعام ، والورد منا قريب
ولنا مجلس على النهر فيأ ح ترتاح فيه القلوب
ودوام المدام يدنيك يمن كنت هوى وان جناك الحبيب (٢

ويظهر ان هذه العادة عمت في زمن القاضي التنوخي سائر طبقات الناس حتى كان يقال : من اصبح في يوم سبت وعنده طباهجة عنبرية . وبالقرب منه باقلّاني (لشرآء النقل) ولم يصطبح ، لا صبّحه الله بخير ولا عافية[٣] .

ولما مرّ ابن بطوطة بمدينة زبيد في اليمن حكى ان لاهل هذه المدينة سبوت النخل المشهورة . وذلك انهم يخرجون في ايام البسر والرطب في كل سبت الى حدائق النخل ، ولا يبقى بالمدينة احد من اهلها ولا من الغرباء . ويخرج اهل الطرب واهل الاسواق لبيع الفواكه والحلاوات . وتخرج النساء ممتطيات الجمال في المحامل .[٤]

ويظهر ان عادة تكريم يوم السبت كانت فاشية ايضاً في بعض انحاء المغرب والاندلس نقلًا ، لا شكّ ، عن اهل الشرق . ومن الابيات التي رواها المقّري في معناها قول ابن الزقّاق البلنسي وقد ظرف واجاد :

وحبّب يوم السبت عندي أنني ينادمني فيه الذي انا احبيت
ومن اعجب الاشياء انني مسلم حنيف ، ولكن خير ايامي السبت (٥

ومنها لابي عبدالله بن السراج :

يا من اذا ما سقتني الراح راحته اهدت اليّ بها روحاً وريحانا
من لم يكن في صباح السبت يأخذها فليس عندي بحكم الظرف انسانا (٦

---

١) اخبار ابي نواس لابن منظور ، ص ١٠٥

٢) مجلد من قطب السرور في وصف الانبذة والخمور للرقيق القيرواني . خزانة برينيش بوز برقم Or. 3628, f° 121b

٣) نثار المحاضرة للقاضي التنوخي ١ : ٢٠٩

٤) رحلة ابن بطوطة ؛ مطبعة النيل ، ١ : ١٤١

٥) نفح الطيب ، المطبعة الازهرية ، ٣ : ٤٩٧

٦) نفح الطيب ، المطبعة الازهرية ، ٣ : ٢٤٤

ومما تقدم يتضح ان يوم السبت كان في الاعم الاغلب « يوم خير لا يوم امر» فكانوا يستشارون فيه جدًا مطالبة الجباة ومستخرجي الاموال والرسوم السلطانية ، ولذلك قال ابو بكر الخوارزمي في رسالة له « يا وجه المستخرج في يوم السبت. يا إفطار الصائم على الخبز البحت »[1] وضربه مثلًا للثقيل الكريه .

ولكن مهما بلغ شأن يوم السبت في جميع البلدان فلم يكن ، دون شك، الا دون مبلغه في دمشق واحتفال اهلها به احتفالًا ساوى فيه الغني الصعلوك . والسيد المملوك . فلم يكن يتخلف احد عن تعطيله والإضراب عن كل شغل فيه والانتشار في الميادين والبساتين كما شهد بذلك ابو شامة في ذيل الروضتين .[2] ونبّه عليه ابن بطوطة في كلامه على اهل دمشق فقال : لا يعملون يوم السبت عملًا. انما يخرجون الى المتنزهات وشطوط الانهار ودوحات الاشجار بين البساتين النضيرة والمياه الجارية فيكونون بها يومهم الى الليل .[3]

وقد توسع القزويني في وصف سبوت دمشق وشرح اوفى شرح تعظيم الناس لها ومغالاتهم فيها فقال:

« في هذا اليوم لا يبقى للسيد على المملوك حَجْر . ولا للوالد على الولد . ولا للزوج على الزوجة . ولا للاستاذ على التلميذ . فاذا كان اول النهار يطلب كل واحد من هؤلاء نفقة يومه . فيجتمع المملوك باخوانه من المماليك . والصبي باترابه من الصبيان . والزوجة باخواتها من النساء . والرجل ايضاً باصدقائه . فاما اهل التمييز فيمشون الى البساتين ولهم فيها قصور ومواضع طيبة . واما سائر الناس فالى الميدان الاخضر وهو محوَّط . فرشه اخضر صيفاً وشتاء . وفيه الماء الجاري . والمتعيّشون يوم السبت ينقارن اليه دكاكينهم . وفيها حلق المشعبذين والمساخرة

---

١) لم ندرك بحلة المجمع العلمي العربي بدمشق مغزى هذه العبارة فقالت : لعل الحكومة كانت تعمل والاهالي يتعطلون ويتنزهون يوم الجمعة فيفجأهم المستخرج اي المحصل بطلب المال يوم السبت فيشتغلونه كما يشتغل صبيان المكاتب يوم السبت ايضاً (السنة الرابعة ١٩٢٤ ، ص ٢٩)

٢) خزانة باريس ٥٨٥٣ ، ص ٥١

٣) رحلة ابن بطوطة ١ : ٥٠

والمغنين والمصارعين والقصاصين[1]. والناس مشغولون باللعب واللهو الى آخر النهار. ثم يفيضون منها الى الجوامع ويصلون فيها المغرب ويعودون الى اماكنهم.»[2]

وكان اهل دمشق، حسبما ذكر القزويني ايضاً، اميل الناس الى اللهو واللعب. فلم تكن تكفيهم البطالة والتعيد يوم السبت وحده حتى اضافوا اليه يوم الثلاثا احياناً. ومن اشهر الاماكن التي كانوا يقصدونها بالزيارة هذين اليومين الربوة المشهورة في ايام الصيف. وكانت تجري فيها بعض المنكرات[3] لكثرة اختلاط الناس فيها واجتماع باعة اللهو من ارباب الحلق والملاعيب والشموذة وخيال الظلّ واشباههم. ووفرة من يتخطر فيها من الغلمان والجواري والنسآء في املح زيّ وافتنه. ولذلك لما ولي الامير سيف الدين الحنبلي اقتسر الصاحبي نيابة دمشق سنة ٧٧٨ (١٣٧٦ م). «باشرها شهرين وعشرين يوماً فازال الفساد وانكر المنكر. وامر الناس بفتح الاسواق يوم السبت والثلاثا.»[4]

وفيما عدا الربوة كان ارباب البطالة والمتنزّهون يزدحمون في الميدان الاخضر، في موضع المرجة اليوم، وفي الشرف الاعلى في جواره. ولتاج الدين محمود الصرخدي يصف الشرف الاعلى يوم سبت:

أشرف على الشرف الاعلى، اذا سنحت لك الظبآء بسرحات الميادين
في يوم سبت، ترى الوفرات جائلة على المناكب امثال الشابين[5]

يريد بالوفرات ذوائب الغلمان والجواري التي كانت تنوس على ظهورهم مضفورة، ولذلك شبهها بالافاعي. وكان إطلاق الذوائب يومئذٍ شاملاً، فيما خلا النسآء والغلمان، كثيرين من الرجال حتى بعض الشيوخ منهم. وقد افاض ابن خروف الاندلسي في وصفها في يوم سبت شهده بدمشق فقال:

اذا رحلت عروبة عن حماها، تأزّه كل ازّاه حليم

---

١) في الاصل المطبوع الفصالين. وهو لا شك تحريف من الناسخ.
٢) آثار البلاد واخبار العباد، طبعة اوربة، ٢: ١٢٩
٣) وصف ربوة دمشق لابن طولون (مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. السنة الثانية ١٩٢٢، ص ١٤٨)
٤) ذيل ابن قاضي شهبة، خزانة باريس ١٥٩٨، ص ٢٤٨
٥) الثالث من عيون التواريخ للكتبي. خزانة باريس ١٥٨٧، ص ٧٧

الى بيت حكى فرعون موسى بجمع كل سحار عليم
فتبصر كل أمأود قويم بيس بكل ثعبان عظيم
اذا انسابت اراقمها عليهم ، تذكرنا بها ليل البليم
وشاهدنا بها ، في كل حين ، حبالاً ألقيت نحو الكليم (١

وبالاجمال كانت ايام السبوت في الفيحاء من اكبر الاعياد والمواسم تغلق فيها الاسواق ، وتعطل الدواوين والمكاتب وتهجر من اجلها حلقات التدريس في المساجد ، وتزدحم في الساحات والميادين اصناف الخلق باغرب الازياء من الثياب المشهرة والمنسوجات البلدية الموشّاة الفائقة الصنعة . فكان يرى الناظر من بهجة الوانها واختلاف خطوطها ونقوشها ما يزيد تلك الوجوه والقدود رونقاً ونضارة . وقد اشتهر الدمشقيون في كل وقت بالجمال وحسن التكوين . ولذلك قال شهاب الدين الشاغوري من قصيدة يصف فيها دمشق :

كم يوم سبت بديع في دمشق اتى بالحسن من يوسف الصديق يحكيه (٢

وقد افتتن الغرباء بمثل هذا الحسن والمنظر الانيق ، فقال نور الدين الغرناطي الاندلسي يمدح دمشق :

اما دمشق فجنّة ينسى بها الوطن الغريب
فيها ايام السبو ت بها ومنظرها العجيب !
انظر بعينك ، هل ترى الا عجباً او حيب
في موطن غنّى الحما م به على وقص القضيب
وغدت ازاهر روضه تختال في فرح وطيب (٣

وقال ابن خروف ايضاً ، بعد ما تقدم من نظمه :

تمتّع من دمشق ، ومن هواها فان هوآءها للنفس قوتُ
لها من كل فاكهة ضروبٌ تفتّحها على الناس البخوتُ
وسيدان له جمع بديع به تُرهى على الجُمَع السبوتُ (٤

وكان القضاة والشيوخ والادباء يجتمعون ايام السبوت في الرياض والبساتين .

---

١) الثاني من نفح الطيب للمقري ، المطبعة الازهرية ، ص ٢٨١
٢) الثالث من عيون التواريخ ، ص ٦٠
٣) رحلة ابن بطوطة ١ : ٥٠
٤) الثالث من عيون التواريخ ، ص ٢٩

ويتذاكرون على تغريد الاطيار وخرير الانهار . ومن الجواسق التي عرفت بمثل هذه الاجتماعات السبتية قصر القاضي قطب الدين ابن شيخ السلامية ، ناظر الجيوش الاسلامية بالشام ، المتوفى سنة ٧٣٢ (١٣٣٢ م) « وكان فاضلاً يحب الفضلاء . والادباء يترددون اليه . ويجتمعون على طعامه وفي بستانه أيام السبوت ويحسن اليهم ويبرّهم » .[1] واشتهر من الأطباء رضي الدين الرحبي المتوفى سنة ٦٣١ (١٢٣٣ م) بعادة لزمها في كل ايامه لا يخلّ بها وهي « انه كان يحمل يوم السبت ابدًا لخروجه الى بستانه وراحته فيه . ويتركه يوم بطالة عن الاشغال » .[2]

وقد مرّ بنا من شهادة القزويني ان المتنزهين ايام السبوت كانوا لا يدعون ترك اللهو في المساء والمصير الى الجوامع للصلاة . وكانوا اذا اتفق حضور بعض مشاهير الخطباء والمحدّثين ، وحان وقت مجلسهم والقاء دروسهم ومواعظهم ، يبيتون من اجلها في الجامع ثم يعودون الى اماكنهم في الحدائق والرياض . ولما قدم دمشق الشيخ شمس الدين ابو المظفر سبط ابن الجوزي « كان له مجلس كل يوم سبت بكرة النهار عند السارية التي عند مشهد علي زين العابدين . وكان الناس يبيتون ليلة السبت بالجامع الاموي . ويتركون البساتين والفرج في الصيف حتى يسمعوا ميعاده . ثم يرجعون الى بساتينهم يتذاكرون ما قاله من الفوائد والكلام الحسن .»[3] فيجمعون في آن واحد بين الجدّ والهزل .

---

١) الوافي بالوفيات للصفدي ؛ خزانة اكسفرد ٣٦ ،Land. Or. 4, f°

٢) عيون الانباء لابن ابي اصيبعة ٣ : ١٦٤-١٦٥

٣) البداية والنهاية لابن كثير رواية الطبراني ، خزانة باريس ١٥١٦ ، ص ٢٠

دير يُونّى (يوحنا)

بظاهر دمشق

وهم في ضبطه كلٌ من ابن شداد في الاعلاق الخطيرة ، وشهاب الدين العمري في مسالك الابصار ، وياقوت في معجم البلدان . ورووه في حرف الياء الموحدة المفتوحة بدلًا من الياء المثناة المضمومة . واورده ياقوت بعد دير بولس وقبل دير التجلي . ولعله جاء بالموحدة ايضاً في نسخ كتب الديارات للاصبهاني والخالدي . وقد سقط من نسخة الشابشتي في برلين فلا يدرى كيف كان مثبتاً فيها . واغفل ذكره البكري في معجم ما استعجم في جملة الديارات الكثيرة التي ضرب عنها صفحاً . واللفظة رومية كما هو معلوم . والدير من ادبار الملكيين . ولا شك انه كان مبنياً على اسم يوحنا المعمدان لقول ياقوت والعمري ان الدير كان من اقدم ابنية النصارى « بني بعد المسيح عليه السلام بقليل » فلا تمكن من ثم نسبته الى يوحنا فم الذهب او يوحنا الدمشقي .

وفي ياقوت والعمري ان الدير كان بجانب غوطة دمشق في انزه مكان بين رياض مشرقة ، وانهار متدفقة . ولا يخفى ما في هذا التحديد من الغموض والابهام ، وهو قد يصدق على غير موضع واحد في ظاهر دمشق . ولعل الاغلب انه كان في ناحية باب الفراديس حيث تعددت الديارات والبيع . وقد شيد بعض شيوخ بني حمدون ، حين صحب المتوكل الى دمشق سنة ٢٤٣ للهجرة (٨٥٧ م) انهم بنوا الموضع المعروف بالفراديس ، ونزلوا منزلًا بين كنائس عظيمة وآثار قديمة[1] . فلا يبعد ان دير يونّى كان في جملتها . وفي زمان العمري كان موضعه قد تنوسي واندرست معالمه . ولذلك قال فيه : « هذا الدير اليوم لا وجود له . وقد اقفرت الارض منه من رسم وطلل . ومحى وحادث كل

---

١) الدر الملتقط من كل غير وسقط . خزانة بريتش موزيوم Add. 19403. f. 126b

دير بعده جلل »[1] وكان خرابه ، دون ريب ، بعد القرن السابع للهجرة او في اواخره . لان معجم البلدان شهد انه كان صغيراً ورهبانه قليلون . وحكى ان الوليد بن يزيد الخليفة الاموي اجتاز به فرأى حسنه . فاقام به يوماً في لهو ومجون وشرب . وقال فيه :

حبّذا لباني بدير يونى ، حيث نُسقى شرابنا ، ونُغنّى
كيف ما دارت الزجاجة درنا ، بحسب الماهلون انا جُننّا
ورمونا بنسوة عطرات ، وغناء ، وقهوة ، فقتلنا
وجعلنا خليفة الله فطرو س بحرنا ، والمستشار يُحنّا
فاخذنا قرباضم ، ثم كفّر نا لصلبان دبرهم فكفرنا
واستهنّا بالناس ، فيا يؤ لون ، اذا نُخبروا بما قد فعلنا [2]

ومن البيت الرابع يستدلّ على ان رأس الدير، في عهد الوليد بن يزيد، كان اسمه بطرس . ولعل اسم المستشار يحنا لم يرد معه الّا لاتمام القافية او انه اشارة الى شفيع الدير .

وفي هذا الدير يقول ايضاً عبد الملك بن سعيد الدمشقي :

غلّيت طيب العيش في دير يونا بندمان صدق اكملوا الظرف والحسنا
حملت الى قسّه بنت كرمة مشعّة ، قد صيّروا خمدرها دنّا
دفعنا اليه مهرها ، حين زفّها ، عروساً تهادى في قراطقها زفا
وقمنا الى روض اريض ، وشادن غضيض تهاوى الخور في شكله حسا
له جيد جيداء ، وعين غزالة ، يريك اذا عاينته البدر والغصنا
يغنّي فيغنينا بحسن غنائه عن الغانيات المحسنات ، اذا غنّى
وتثني لنا الاطراب رنّات عوده ، اذا عوده في حجره مرّحنا رنّا
ويثني الى عيّ التصابي قلوبنا ، اذا استنطق الاوتار او حرّك المثنى
ويبدي لنا اللحن المثلوب ، اذا شدا ، وقد امن الاسماع ان تسمع اللحنا
حلمنا عذار اللهو عنا ، ولم نزل ، اذا اسرف المُذّال في العذل ، اسرفنا
وهان علينا الذل في طاعة الهوى فان اكثر اللوّام في اللوم ، هوّنا

---

١) مسالك الابصار ، ص ٢٥١

٢) من الغريب ان ياقوت بعد ان روى هذه الابيات في دير بوق ونسبها للوليد بن يزيد، في كلامه عليها ، وعاد ونقلها في تعريف « تل بوّنا » من قرى الكوفة كما حكى . وعزاها لمالك بن اسماء الفزاري (١ : ٨٦٥) وهو سهو منه ظاهر تتابع له الشاه ونظائر

فعيًا لذاك العيش لو كان عائدًا عليه وكنّا فيه مثل الذي كنا! (١

وقد رويت لفظة يوّنى في كل ما سبق بالبآء الموحدة فاصلحناها.(٢ وهذه الابيات هي كل ما وقفنا عليه من الخمريّات التي قيلت في الدير . ولا بد لها من نظائر لم تتصل بنا لكثرة تهافت الشعرآء والمجّان على غشيان هذا الدير لطيب موقعه ونزاهته ، وجودة شرابه ، كسائر امثاله من الديارات المشهورة بتردّد المسلمين اليها حبًا باللهو والقصف والسكر.

دير مَرْحنّا

بمصر

هو دير مسار يوحنا المعمدان من ادبار الملكيين بمصر . قال المقريزي : « وهذا الدير يعرف اليوم بدير الطين (بالنون) على شاطئ بركة الحبش وهو قريب من النيل . والى جانبه بساتين انشأ بعضها الامير تميم بن المعزّ . »(٣ وهو كسائر الاديار والكنائس الملكية لا يدرى له اصل انشآء ، ولا تاريخ بنآء . ولعلّه كان حينًا في حوزة الاقباط . استولوا عليه في جملة ما اغتصبوه من الملكيين ، في دولة الامويين واوائل خلافة العباسيين . وهو ما يشير اليه قول التاريخ المنحول لابي صالح الارمني :

« هو الآن (٥٦٤ للهجرة = ١١٦٨ للميلاد) يد الملكيين . واهتم بتجديد عمارته قديمًا ابو الفضل ابن البغدادي وابو نصر ابن عبدون يعرف بابن الدنّاس متولي ديوان الشام في

---

١) برق الشام (كذا وهو بعض كتاب الاعلاق الخطيرة لابن شداد) في خزانة ليدن Arabe 1466, f° 62

٢) ومن تابع ياقوت في غلط روايته وضبطه رينه دوسو العالم الاثري في كتابه : *Topographie historique de la Syrie*, p. 297

٣) الخطط ، طبعة النيل ، ٤ : ٤١١ . واذا ضبط المقريزي لفظة الطين بالنون لانه كان بمصر دير يسمى دير الطير بالراء قبالة ساحل

الخلافة الحاكمية. » (١

ولما تتبع الحاكم بامر الله معابد النصارى بالتقويض والتدمير ، لم ينجُ هذا الدير من النهب والخراب . واخذ الحاكم نفسه جانباً منه ومن البيعة وبناه مسجداً بأذنة . وكان فيه ، فيما عدا الرهبان ، جماعة من الراهبات ايضاً كان يهتم بهنّ ابو الفضائل بن ابي الليث الكاتب الملكي ، شقيق ابي البركات يوحنا ، متولي ديوان التحقيق ، المقتول سنة ٥١٨ للهجرة (١١٢٤م) . وكان في جوار الدير بستان له ، جامع لصنوف الاشجار المثمرة النادرة . قال صاحب التاريخ المشار اليه :

« واتفق وفاة ابي الفضائل هذا . وكان له ابن اخت يسمّى ابي المكارم محبوب بن ابي الفرج الحابودي . وكانت اخت ابي البركات ابن ابي الليث زوجة ابي الفرج هذا . فانتقل من الملة النصرانية واختتن وعمره يناهز اربعين سنة . ووضع يده على البستان المذكور . وملكه على حكم الموروث وتسلط على الرهبانات واخرجهنّ منه . وهدم المنظرة وجعلها مسجداً واضاف الدير ، وعمل فيه همة(٢ للامام الحافظ . فحضر عنده وازداد الدير ضعفاً . وامتنع الملكيين من زيارته . ثم تواترت الفتن . وهدم معظم الدير والكنيسة . وصار امره للتلف . وكان للملكية اسقفاً بمصر يسمى يوسف . فجدد ورمّ فيه ما وصلت قدرته اليه . وهو باقٍ الى الآن (١١٦٨ م) لم تكمل عمارته كما كان لضعف الطائفة وقلة عددهم واهمال رئيسهم وتغفله عن النظر فيه وفي غيره . وعادة اسقف مصر على هذه الطائفة بالحضور الى هذا الدير في يوم الاثنين دائماً اول الجمعة الثانية من الصوم الكبير . وجماعة كبيرة من طائفته ومن القبط لسماع وصية الصوم وما يجب ان يعمل فيه . وهذا الدير ايضاً يعيد فيه في ثاني يوم عيد الفطاس . »(٣

ويعدّ هذا الدير في جملة الديارات التي اتخذها الخلعآء وعشاق الصهباء في الاسلام متنزّهات للهو والطرب ، وحانات للسكر والغناء ، لاجتماع طيب الشراب فيه الى طيب الهوآء وحسن المنظر ، وإشرافه على بركة الحبش ، احدى بقاع مصر المشهورة قديماً بالقصف والبطالة . وقد ذكرته الشعرآء وتغزلوا فيه فقال امية بن عبد الصلت المعري :

يا دير مرحنا ، لنا ليلة لو شُربت بالنفس لم تُبخس
بتنا بـه في فتية أعربت آدابهم عن شرف الانفس

١) طبعة أكسفرد، سنة ١٨٩٤، ص٥١-٥٢ *The Churches and monasteries of Egypt*
٢) همة هنا بمعنى الدعوة. وكان يقال في دولة المماليك: صنع له همّاً، اي دعوة او مأدبة

والنيل في شملة ظلمآنه ، كأنه الراهب في البرنس
تشربها صهباء مشمولة تغني عن المصباح في الحندس
وهي ، اذا تنزّ عن دنّها ، اذكى من الريحان في المجلس . . . (١

وللامير تميم بن المعزّ لدين الله :

أيا دير مرحنّا ، سقتك رعودُ من الغيم ، يحمي عزها ، ويجودُ
فكم واصلتنا في رباك اوانس يطفن علينا بالمدامة ، غيد
وكم ناب عن نور الضحى فيك مبسم ، ونابت عن الورد الجنيّ خدود
وماست على الكثبان قضبان فضة فاثقلها من حملهنّ ضرد
ليالٍ اغدو بين ثوّبي صبابة ولهو ، وايام الزمان هجود
واذ لمّتي لم يرقط الشيب ليلها واذ اثري في الغانيات حميد (٢

ولابن ابي عاصم فيه :

اقرأ على دير مرحنا السلام ، فقد ابدى تذكّره مني صباباتي
وبركة الحبش اللاتي بهجتها ادركت ما شئت من لهوي ولذّاتي
كأن اجبالها من حولها سُحُب تقشّعت ، بعد قطر عن سماوات
كأن اذناب ما قد كان صيد لنا من أبرَميس وراي بالشبكات (٣
انّى خُضبت اطرافها بدم ، او دمّجٌ تزعوه من جراحات
منازل كنت اغشاها واطرقها ، وكنّ قدمًا مواخيري وحاناتي (٤

وقال فيه ايضاً :

يا طيب ايام سفحتُ مع الصبا ، طوع الهوى فيها بسفح المنظر
فالبركة الذنّآء ، فالدير الذي قد هاج فرط صبابتي وتفكري
فاحثُث كؤوسك ، يا غلام ، وأغنني ، فلقد سكرت وخمر طرفك مُسكري
وأرى الثريا في السمآء كأنها تاج تفصّل جانباه بجوهر
فاشرب على حسن الرياض ، وغنّني ، وانظر الى الباقي الاغنّ الاحور
فلعلّ ايام الحياة قليلة ، ولعلني قدّرت ما لم يُقدَر (٥

---

١) معجم البلدان لياقوت طبعة اوربة ٢ : ٦٦٩
٢) ديوانه ، خزانة جامعة ليدن Arab. 2035=Amin 314
٣) الابرميس والراي صنفان من اسماك النيل ذكرهما ياقوت في جملة الاسماك التي كانت تُصاد في تنّيس (معجم البلدان ١ : ٨٦٦)
٤) معجم البلدان ٢ : ٦٦٨-٦٦٩
٥) مسالك الابصار للعمري ، ص ٢٦٢-٢٦٣

وكانت بركة الحبش تعرف ايضاً ببركة المافر[1] باسم حيّ من همدان . ولذلك كان يقال احياناً لدير مار يوحنا دير المافر. ومنه قول صالح بن موسى مولى بني تميم يذكر الدير والبركة:

انِ لمثلك ناصح فاجنَحْ اليْ ، ولا تُغَرّْ
بكِّر الى دير المعا فرِ ، ان اوقات البُكَرْ
أوَ ما ترى حسن الربا ضِ وما كُسين من الزَهَرْ
وجه الربيع ، وحبّذا وجه الربيع اذا ظهرْ
الوشي يُنشر ، والملا حف،والمطارف، والحبَرْ (٢

وقد خفيت آثار هذا الدير ، ومحا الدهر رسومه ومعالمه ، فلا يُدرى له مكان ، ولا كيف عبث به الزمان.

---

١) المخطط للمقريزي ، طبعة النيل ، ٣ : ٢٤٧
٢) كتاب الديارات للشابشتي ، نسخة برلين ، ص ١٣٩

احتيال الملوك الايوبيين

في رشوة النسآء الفرنجيات لتجسّس الصليبيين

كان الملك العادل سيف الدين ابو بكر ، شقيق السلطان صلاح الدين ، ذا مكر ودهآء ، ورأي ثاقب ، وقدرة على افساد القلوب واصلاحها . وله في الحرب والسلم مكايد وحِيَل كان يبتدعها بفطنته الغريبة ويبلغ بها ما يروم من الاعدآء والخصوم بالطف الوسائل . ولذلك كان السلطان صلاح الدين يرجع الى رأيه ويستعين به في كل ما جلّ من خطب او حرب . ولما قدم له احد المصنفين كتاباً مصوّرًا في مكايد الحروب ومنازلة المدن ، وهو حينئذٍ على عكا محاصرًا للفرنج ، قال: ما نحتاج الى هذا الكتاب ومعنا اخونا ابو بكر . ولا شكّ ان الفضل يعود اليه في بعض انتصارات الاسلام على اهل الصليب . وكانت له ارصاد وعيون يطالعونه بكل ما يقفون عليه من احوال الاعدآء والاولياء . فكان يعلم ما قرب او بعد منه . ولا يجهل ما يدور في صدور بطانته ورجاله انفسهم . وله في ذلك حكايات غريبة نقل بعضها ابن سعيد المغربي ، بعد ان ذكر ما قدمناه من وكون صلاح الدين اليه وتعويله عليه. قال: «وكان يصرف الحلي لنساء الفرنج ويوجبه في الخفية اليهنّ حتى يمكن ازواجهنّ عن الحركة ».[1] ولا يخفى على احد ما في هذه الشهادة من الدلالة والشأن في تعليل تغلّب صلاح الدين على الصليبيين واندحار امرائهم في بعض الوقائع . وكانت النسآء الصليبيات وتتذر كثيرات الاعجاب بمصنوعات دمشق من الحلي والجواهر وثياب الوشي والديباج ، والمقانع الحريرية ، واصناف الطيب . وهي الطرائف التي قال فيها احد سفّار الطليان حين مرّ بدمشق : « لو كنتَ خبأت دراهمك في عظم ساقك لكسرته رغبة في اقتنائها»[2] فلا عجب اذا كان بعضهنّ لا يملكن انفسهنّ من التشوّق الى إحراز شيء منها . وقد عرف العادل من اين

١) نفح الطيب للمقري . المطبعة الازهرية المصرية ١ : ٤٦٤

٢) Simon Sigoli, *viaggio del Monte Sinai*. Rome 1819, p. 58

توكل الكتف معهن .

وممن ورث عنه حب التجسس ، ومصانعة الافرنج ، وإفساد قلوب نسائهن بالرشى والهدايا للافضاء اليه باسرار القواد والجنود ، ولده الملك المعظم عيسى (٥٧٦–٦٢٤ هـ = ١١٨٠–١٢٢٧ م) وقد نقل سبط ابن الجوزي بعض اخباره في هذا الصدد ، واجتمع به في نابلس ، وسمع منه ما رواه في تاريخه . ولا تخفى قيمة شهادته ومكانتها في تاريخ الحروب الصليبية . قال :

« كان في ايام الفتح مع الافرنج يرتب النيران على الجبال من باب نابلس الى عكا . وعلى عكا جبل قريب منها يقال له الكرمل كان عليه المنوّرون وبينهم وبين الجواسيس علامات . وكان له في عكا اصحاب اخبار . واكثرهم نساء الحيالة . فكانت طاقاتهم في قبالة الكرمل . فاذا عزم الفرنج على الغارة فتحت المرأة الطاقة . فان كان يخرج مائة فارس اوقدت المرأة شمعة واحدة . وان كانوا مائتين شمعتين . وان كانوا يريدون قصد حوران او ناحية دمشق اشارت الى تلك الناحية . وهكذا الى نابلس . وكان قد ضيق على الافرنج الطرق . فكان الفرنج لا يقصدون جهة الّا يجدون عسكر المعظم قد سبقهم اليها . وكان يعطي النساء والجواسيس في كل فتح جملة كثيرة . فقلت له في بعض الايام . هذا إسراف في بيوت الاموال . فقال انا استفتيك . لما عزم الانبرور[1] على الخروج الى الشام اراد ان يترك عكا ينتة ويسير الى باب دمشق .

---

١) يعني بالانبرور (L'Empereur Frédéric II Hohenstaufen) . وهذا التعريب اكثر ما يقرأ في كتب المؤرخين الاسلاميين . ومن آثره منهم على لفظة انبرطور – وهم اغلب ما يرسمونها بالنون . ونادرًا بالميم اي امبرطور – ابن الاثير . وابن كثير . وابو شامة . وسبط ابن الجوزي . واليافعي . وابو الفداء . وشمس الدين الدمشقي صاحب نخبة الدهر . وكتاب تشريف الايام والعصور بسيرة الملك المنصور . وكتاب سِيَر البطارقة الاقباط . وابن خلكان روى به بيتي صلاح الدين الاربلي :

زعم الزعيم الانبرور بأنه سلم يدوم لنا على اقواله
شرب اليمين فان تمرض ناكثًا فليأكلنّ لذاك لحم شماله

(وفيات الاعيان ١ : ٧٤)

وذكر ابو الفدآء في جملة مصنفات القاضي جمال الدين بن واصل « الانبروريّة » في

فبعث فارساً عظيماً وقال اخفر امرنا ومجيئنا الى البلاد لِتُغير بغتة. وكان بعكا امرأة مستحسنة فكتبت الي تخبرني . فبعثت لها ثياباً ملونة وعنبراً ومقانع حرير . فلبستها واجتمعت بالفارس . فدهش وقال من اين هذا . فقالت من عند صديق لنا من المسلمين . فقال من هو . فقالت الكريدي.[1] فصلّب على وجهه وقام فخرج من عندها . قال فما زالت تلك المرأة تتلطف بالفارس وتهاديه حتى نسجت المودة بيني وبينه. فصرت أُهاديه حتى كان يبعث الي كتب الانبرور التي يبعثها اليه مختومة . وأرسل اليه فيكتب ما اقول. فانا أداري عن المسلمين بهذا القدر اليسير وافدي به الخطير . فان الانبرور لو جاء بغتة اسر من اهل الشام وساق من مواشيهم واموالهم ما لا تحصى قيمته.»

قال ابو المظفر : وحكى لي سعد الدين مسعود والي الجولان قال: «كنت والياً بالشوبك . وكان بها راهب منفرد في بعض الجبال. فجاءني كتاب المعظم بنفيه فنفيته . فغاب سنة وجاء في كتاب المعظم يقول أعِدْهُ الى مكانه وتوصَّ به. فبحثت عن قصته. واذا به قد بعث به الى البحر كشف له اخبار الانبرور على وجهها . وانما نفاه حتى لا يُتَّهم واطلق لـه ارضاً يعيش منها واعطاه مائة دينار.»[2]

ولم يكن المعظم يقتنع بتجسس الرجال والرهبان والنساء له . بل كان يتنكر احياناً ويخرج بنفسه متفحصاً ويلج خفية ما جاوره من بلاد الصليبيين رائداً بعض الاخبار قال الصفدي: «اشتهر عنه انه دخل عكا لكشف احوالها في زيّ زيات واقام بها اياماً ورهن خاتمه عند دكّاني . فلما عاد الى دمشق كتب الى صاحبها واعلمه بما جرى له وسأله ان يفكّ خاتمه وينفذه . فقامت قيامته .

المنطق. قال صنفها للانبرور ملك الفرنج صاحب صقلية.

ومن تردد في كتابتها مرة انبرور ، ومرة انبرطور ، وقليلاً امبراطور ؛ النويري في غاية الارب ؛ والمقريزي في السلوك ؛ وفي الخطط . ولا مشاحة في ان لفظة ابرور اخفّ واقصر واقرب للاوزان العربية واسهل إدماجاً في النظم ، فهي لذلك ارجح في الاستعمال . .

١) يظهر ان الملك المعظم كان معروفاً عند الصليبيين بلقب الكُرْيدي. ومعلوم ان بني ايوب كانوا من اصل كردي.

٢) مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي. خزانة جامعة ليدن Arab. 2 I. p. 278

وكاد يموت غيظاً.»[1]

وهذه اول مرة فيما نعلم يشار فيها الى مصانعة الايوبيين الفرسان والرهبان ورشوتهم النساء بالحلي والحلل «ليمسكن ازواجهن عن الحركة». وهو ما خفي عن مؤرخي الصليبيين حتى احدثهم عهداً بزمنه گروسّه. وهذه المكايد كافية لتعليل ضعف الافرنج في الدفاع عن مملكتهم السورية. وفشلهم مثلاً في الاستيلاء على دمشق حين تجمعوا لحصارها واخذوا بخناقها واوشكوا ان يدخلوها. ثم اصبحوا وهم يتسللون عنها بعد مراسلات وردت اتّهم فيها احد مؤرخيهم افرنج الشام بالمخامرة والارتشاء. ولا غرو فقد شارك احياناً الخاصة منهم العامة في اعانة الايوبيين بالخيانة والغدر باخوانهم اهل الصليب. وقد عثرنا في هذا الصدد على شهادة اسلامية لا تزال أُنُفاً نقلها النويري في اخبار سنة ٥٨٢ للهجرة (١١٨٦م) في كلامه على اشهر رؤساء الافرنج في ايام صلاح الدين وهو المعروف بلقب «قومص طرابلس» le Comte de Tripoli قال:

«في هذه السنة هادن قومص طرابلس السلطان وصالحه وصافاه حتى كان يقاتل ملوك الافرنج اشد القتال. ويسبي منهم العيال. وكاد ان يُسلم ولكنه صدّه شيطانه ورماه بالرباثث والحبال. وكانت مصالحة القومص من اقوى نصرة السلطان على الفرنج. ومن اشدّ ما دخل عليهم في دينهم ودنياهم. ولله الحمد والمنة.»[2]

ومن هذه الشهادات المتقدمة يتبين أن الافرنج كثيراً ما اعانوا الاعداء على انفسهم. وأن بعض انتصارات الايوبيين عليهم لم تكن ثمرة الشجاعة والفروسية ولكن وليدة المخادعة والافساد والتجسس. وفي المخطوطات العربية التي لا تزال مطوية في بطون الخزائن نظائر لهذه النصوص في اثناء كلامها على الوقائع الصليبية. وهي حرية بالتأمل والاعتبار لما فيها من الايضاح والاستدراك على اخبار رجال الفريقين مما لم ينتبه بعد لمكانها علماء المشرقيات، ولا غنى لمؤرخ القرون الوسطى من الوقوف عليها اذا لم يشأ الزلل في احكامه. فهل من ينشط لاستقرائها وتدوينها وترجمتها حباً بخدمة الحقيقة التاريخية.

---

١) الجزء الحادي والعشرين من الوافي بالوفيات. خزانة اكسفرد Seld. Arch. a. 28

٢) مجلد من نهاية الارب للنويري. خزانة جامعة ليدن Arab. 19 a Gol. دون ارقام

لقب القاضي

في دولة المماليك

اختلف مدلول الالقاب السلطانية في الدول الاسلامية. كالوزير ، والصاحب ، والحاجب مثلاً. فكان بعضها يتضع او يتسع حسب اختلاف الدول ، وربما عنى احياناً في الواحدة منها ما لا يعنيه في الاخرى. وهو ما يجب التنبه له في مراجعة الاخبار والتراجم . ومن هذه الالقاب التي خرجت عن موضوعها الاول لفظة القاضي . وبعد ان كانت مختصة بالحاكم الشرعي. ابتُذلت في عهد المماليك حتى صارت تتناول كل ارباب الاقلام الديوانية ، سوآء كانوا من الفقهآء والمتعممين المتخصصين بالشرع ام من طبقة المنشئين والكُتّاب . قال القلقشندي : « ان كتّاب الزمان يطلقون لقب القاضي والالقاب المتفرعة منه كالقضآئي والقاضَوَيّ على ارباب الاقلام في الجملة. سوآء كان صاحب اللقب متصدياً لهذه الوظيفة او غيرها . كسائر العلمآء والكتاب ومن في معناهم . وعلى ذلك عرف العامة ايضاً . »[1]

وقد يطلق هذا اللقب على بعض اجلاف العامة والسوقة من الأُميين العُراة من كل ادب وعلم ، اذا اتفق لهم ادراك بعض المناصب السلطانية. « وفي سنة ٨٦٥(١٤٦٠/١ م) استقر المعلم محمد الَبّاوي ناظر الدولة وتَرَيّا بزيّ الكتبة . . . وصار يدعى القاضي بعدما كان يدعى بالمعلم وهو لا يحسن من الكتابة شيئاً حتى انه لا يفرق بين الالف والياء . »[2] والبّاوي نسبة الى بَبا الكبرى من الوجه القبلي . كان فيها خفيراً او راعياً.[3]

ومن العجب ان الكتاب من النصارى واليهود ايضاً كانوا اذا أُكرهوا على

---

١) الخامس من صبح الاعشى ، ص ٤٥١

٢) تحفة الظرفآء . خزانة الكتبخان ٧٢٧ ، ص ٢٦٦

٣) السادس من الضوء اللامع للسخاوي . الخزانة التيمورية ، ص ١٤٦

الاسلام . او اختاروه لآرب لهم . حق لهم للحال ان يتلقبوا بالقضاة. وفي سنة ٦٨٢ (١٢٨٣ م) امر السلطان الملك الاشرف خليل امرآءه باجمعهم ان يعرضوا على من عندهم من الكتاب النصارى الاسلام . فمن امتنع من الاسلام ضربت عنقه. ومن اسلم استخدموه عندهم . وكان في جملة من اختار الاسلام المكين ابن السقاعي احد المستوفين الاتباط « فالبسهم السلطان تشاريف وخرجوا الى مجلس الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس . فبدأ بعض الحاضرين بالمكين بن السقاعي . وناوله ورقة ليكتب عليها وقال يا مولانا القاضي اكتب على هذه الورقة . فقال يا بني ما كان لنا هذا القضآء في خلد.»[1]

وقد غاظ هذا القضآء المرتجل ابن تغري بردي اشد الغيظ فقال في كلامه على اسلام الشيخ الخطير القبطي سنة ٨٢٨ (١٤٢٤/٥ م) :

« وبعد ان كان يخاطب بالشيخ صار ينعت بالقاضي. وهذا من اكبر الفضائح ان رجلاً يكون نصرانياً ويكره على الاسلام . او يظهر الاسلام لمعنى من المعاني . وعن قريب يسمى بالقاضي. فيشترك هو وقضاة الشرع في هذا الاسم. وقد تداول هذا البلآء بالمملكة قديماً وحديثاً . وانا لا الوم الملوك في تقديم هولآء لانهم محتاجون اليهم لمعرفتهم لانواع المباشرة . غير اني اقول كان يمكن الملك اذا رقى واحداً من هؤلآء الى رتبة من الرتب . لا ينعته بالقاضي وينعته بالرئيس او بالكاتب او مثل ولي الدولة او سعد الدولة وما اشبه ذلك. ويدع لفظة قاض لقضاة الشرع الشريف ولكاتب السر وناظر الجيش ولفضلاء المسلمين . ليعطي كل ذي حق حقه في شهرته والتعريف به. وقد عيب هذا على مصر قديماً وحديثاً فقال بعضهم «قاضيها مسلماني. وشيخها نصراني. وحجّها عراني». قلت وان كانت الفاظ هذه الحكاية خالية من البلاغة فهي قريبة مما نحن فيه »[2]

ويعني بالمسلماني الذمي الذي انتحل الاسلام . ومنه ولا شك أخذت لفظة musulman وهم يجمعونه على مُسالِمة . وكان هذا الاصطلاح شائعاً بين المشارقة والمغاربة . قال ابن عبد ربه الاندلسي : « العرب تسمي العجمي اذا

١) خطط المقريزي ٢ : ٤٦٨

٢) السادس من النجوم الزاهرة ، طبعة ليدن ، ص ٥٨٦–٥٨٧

اسلم المسلماني . . . والعجمي النصراني ونحوه وان كان فصيحاً .»[1] وليُحتفظ بهذا القول الاخير . وهو حريٌّ بتأمل من يميل من النصارى السوريين الى التسليم بدعوى من يزعم اليوم ، لأسباب سياسية ، ان الناطقين بلغة القرآن في الشام فرعا دوحة واحدة . وكان العرب قبلاً لا يقنعون بالتبرؤ من هذه الوحدة - بل كانوا ينكرون ايضاً على النصارى حق تعلم اللغة العربية . قال ابو الفرج بن الجوزي :

« في سنة اربعين ومائتين (٨٥٤ م) أُخذ اهل الذمة بتعليم اولادهم العبرانية والسريانية . ومنعوا من العربية . ونادى المنادي بذلك فاسلم منهم خلق كثير .»[2]

وممن استعمل لفظة المسلماني من اهل المغرب ابن سعيد في كتابه المُغرب . وروى فيه لابي الحسين الجزار « قوله في مسلماني لا يبرح في يده كتاب :

يمشي وفي يده كتاب قلّما علم امرؤ في جهله ما قصدهُ
فاعجبتهم : لا تعجبوا من فعله فابوه من اهل الكتاب وجدّهُ[3]

(١) العقد الفريد ٣ : ٢٤٣

(٢) عجائب البدائع ، خزانة باريس ١٠٦٢ ، ص ١٥٥

(٣) المُغرب في حُلى المغرب ، ليدن ، ص ١٢٧

القراصية الدمشقية

وشهرة الخلفاء الفاطميين لها

القراصيا او القراسية ويقال لها الكراز ــ وكلها تعريب Cerasus باللاتينية ــ من اقدم فواكه دمشق. زعم الطبيب ابن القف انها كانت تعرف بدمشق بخوخ الدب[1]. وانما هو صنف آخر من الخوخ معروف اليوم. وكان يقال لها في الاندلس حب الملوك. وقد انقطعت اشجارها من الغيحاء تقريباً كانقطاع غيرها من صنوف الفواكه التي كانت تجتاز اصولها في الفتن والثورات، اثناء استبداد الحكام الاتراك بسياسة المدينة، وعسف اعوانهم من الجنود وجُباة الاموال الاميرية. ومن قابل اليوم بين انواع فواكه الغوطة وما ورد منها في تذكرة الصفدي ومحاسن الشام للبدري يتحقق كثرة ما ضاع او زال منها او من بعض اصنافها. وكثيراً ما كانت تُبتلى دمشق بمثل هذه النكبات في عهد المماليك ايضاً. ففي سنة ٧٠٠ للهجرة مثلاً (١٣٠٠/١م) في اثناء غزاة التتار المشهورة «جبي من اهل دمشق أجر املاكهم لاربعة اشهر. والثلث من ريع ضياعهم وضمانات بساتينهم ومزارعهم. وحصل للناس من ذلك ضرر عظيم واختفى بعضهم. والذين وقعوا بهم الزموهم حتى قطعوا اشجارهم بشرها وباعوها حطباً بحيث بلغ القنطار الحطب بالدمشقي ثلاثة دراهم. وكان ذلك اشد من التتار.»[2]

وفي اوربة اليوم انواع عديدة من القراصية بين حلو وحامض ومزّ وغصّ. على اختلاف في الوانها من احمر واسود واشقر واصفر مشوب بحمرة. وكان اكثرها معروفاً في الغوطة في القرن السادس عشر. ويظهر انها كانت وتتشذ اوفر منها في زمان صلاح الدين الصفدي لانه لم يسمّ منها في تذكرته الا خمسة فقط

---

١) جامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض. خزانة بريتيش موزيوم. Or 3690، الفصل الثالث والاربعون.

٢) النهج السديد للسفضل بن ابي الفضائل. خزانة باريس ٥٥٢٥، ص ١٢٤

وهي : سبقية ، فرنجية ، رشيدية ، بعلبكية ، ومجهولة[1] . وعدّ منها البدري سبعة : رشيدية ، بعلبكية ، افرنجية ، رومية ، طعامية ، فيجيّة نسبة لقرية الفيجة بظاهر دمشق ، وبزرة . كذا دون نسبة . واذا لم تكن هذه التسمية تصحيف برزيّة نسبة الى قرية برزة فلعل الاصل مزّيّة اي من غراس قرية المزّة لقول البدري نفسه ان احسن اصناف القراصية كانت البلدية المنسوبة الى وادي مكرم . قال وهو بين الربوة الى تحت صحن المزة[2] . وكان اجلها واكثرها في ايام ابن طولون الصالحي في القرن العاشر للهجرة الفيجية[3] .

وقلّ من تكلف وصف القراصية من الشعراء خلافاً لسائر فواكه دمشق . ولذلك اقتصر البدري على ثلاث مقطعات فقط له في القراصية الحمراء أولاها :

كأنما القراصيا ، لما بدت للنظر
حبة مرجان تُرى في رأس خيط احمر

وهو وصف صادق التشبيه . وقد استوعب اكثر كلامه عليها اقوال الاطبآء في منافعها ومضارّها كعادته في شحن اوصافه بآراء الاطبآء . وهي اكبر شوائب كتابه . وليته ألمم في مكانها الإفاضة في الاوصاف الزراعية والتجارية لقلة ما اتصل بنا منها .

والقراصية من جملة « القافات » التي كانت تحمل من دمشق للديار المصرية . واكثر ما يقصد بها السلطان . ويظهر ان هذه العادة قديمة سبقت قدوم الخلفاء الفاطميين الى مصر . وكان اكثر ما يذهب منها في القرن العاشر للهجرة احمال من القراصية الفيجية في علب على ينال بطريق العريش[4] . وهو الطريق الذي كان ينقل فيه الثلج احياناً على ظهور الجمال لشراب السلطان . وربما كانت ترسو الفواكه والثلوج من بيروت وصيدا في مراكب البحر الى دمياط ومنها الى القاهرة في النيل . وقد استبطأ مرة الخليفة العزيز بالله (٩٧٥-٩٩٦) وصول

١) فصول من الجزء العشرين من تذكرة المقدي في مجلد ثمرات الاوراق لابن حجة الحموي في خزانة بريتيش موزيوم Add. 7415, f°228

٢) محاسن الشام ، ص ١٩٣

٣) وصف ربوة دمشق لابن طولون ، في مجلة المجمع العلمي العربي سنة ١٩٢٢ ، ص١٥٣

٤) وصف ربوة دمشق لابن طولون .

القراصية ، وكاد يهم بالسفر لدمشق لشدة شهوته لها ، كما حكاه المقريزي في اثناء كلامه على الوزير يعقوب بن كلس من اسالة اليهود. وهذا نص ما اطرفنا به قال:

اراد العزيز بالله ان يسافر الى الشام في زمن ابتداء الفاكهة. فامر الوزير ان يأخذ الأهبة لذلك. فقال يا مولاي لكل سفر أهبة على مقداره. فما الغرض من السفر. قال اني اريد التفرج بدمشق لاكل القراصيا. فقال السمع والطاعة. وخرج فاستدعى جميع ارباب الحمام (١ . وسألهم عما بدمشق من طيور مصر واسماء من هي عنده. وكانت مائة ونيفاً وعشرين طائراً. ثم التمس من طيور دمشق التي هي في مصر عدة. فاحضرها وكتب الى نائبه بدمشق يقول ان بدمشق كذا وكذا طائراً. وعرفه اسماء من هي عنده. وامره باحضارها اليه جميعها. وان يعب من القراصيا في كل كاغدة ويشدها على كل طائر منها ويسرّحها في يوم واحد. فلم يمض الا ثلاثة او اربعة ايام حتى دخلت الحمائم كلها ولم يتأخر منها الا نحو عشر . وعلى جناحها القراصيا . فاستخرجها من الكواغد وعمارها في طبق ذهب وغطّاها وبعث بها الى العزيز بالله مع خادم. وركب اليه وقدم ذلك وقال يا امير المؤمنين قد حضرنا قبالك القراصيا هنا . فان اغناك هذا القدر والا استدعينا شيئاً آخر . فعجب العزيز بالوزير . وقال مثلك يخدم الملوك يا وزير. » (٢

وهذه الملحة تنبي. عما اتصف به يعقوب بن كلس من الفطنة والذكاء المفرط . ولا شك انه لما توفي وشيعه العزيز الى القبر ، ووقف يبكي عليه ، كان بين الدموع التي تساقطت من عينيه الشريفتين درر تناثرت على ذكرى القراصية التي استدعاها له من حاضرة الامويين بوسيلة مبتكرة لم يسبقه احد اليها. وفي ما اشار اليه المقريزي من اخبار الطير بمصر ودمشق ومعرفة اصحابها ، وتقييد اسمائهم في الديوان ، وترتيب شروط اطلاقها ، دليل بيّن على شدة عناية القوم بها وحسن استخدامهم لها . وشاهد من شواهد الحضارة الفائقة التي تمتع بها الشرقيون في العصور الوسطى. ولعلّ ما خفي علينا من رسومها وآدابها اجلّ واعجب مما نعلمه من اوصافها ومزاياها.

---

١) يريد بالحمام حمام الزاجل او الحمام الهادي الذي يرسل بالكتب على بعد.

٢) الخطط. طبعة النيل ٣ : ١٠

الفواكه المكتوبة او المصوّرة

في الشرق

اشتهر اليوم التصوير في الغرب على التفاح والكمثرى ، وبُلغ فيه مبلغاً ليس بعده غاية في الحسن والاتقان. وكان الشرقيون يؤثرون الكتابة على التفاح لطيب رائحته وبهجة لونه ولطف موقعه في الاهداء . ولم نقف قط على اشارة واحدة الى انهم كتبوا مرة على الكمثرى. ولهم في الكتابة او النقش والتصوير طرائق مختلفة نصف منها ما عثرنا عليه بلفظه:

الاولى «ان يعمد الى الشمع فيُداف وتُصنع منه تماثيل وحروف او نقوش. وتلصق على التفاحة وهي خضراء قبل احمرارها. او تُميع الشمع كثيراً وتكتب به عليها قبل احمرارها فانها اذا انتهت بقي ما تحت الشمع اصفر. واحمرّ منها ما سوى ذلك. »[1] -

الثانية « اذا اردت ان تنقش التفاح الاحمر فاكتب عليه وهو اخضر ما احببت بالمداد واتركه. فاذا احمرّ فامحُ عنه المداد تجد مواضع الكتب ابيض حسناً . »[2]

الثالثة « ان يُقصّ من ورق الكاغد شكل كتابة . اي كتابة شئت . وتلصق تلك الكتابة على التفاحة اذا بلغت نصف عِظَمها او اقل - في سواء الصانا محكماً . وتترك حتى تبلغ الشمرة. فينزع عنها الورق . فانه يوجد ما تحته اصفر لم تصل اليه حرارة الشمس فتصبغه صبغ بقية الشمرة فتبقى كتابته طبيعية ظاهرة مخالفة للون سائر الشمرة. »[3]

---

١) كتاب الفلاحة اليونانية لقسطوس بن لوقا. المطبعة الوهبية بمصر ، سنة ١٢٩٣ للهجرة (وهو تعريب قسطا بن لوقا الرومي الملكي البعلبكي) .

٢) كتاب الفلاحة لابي عبدالله محمد بن الحسين. خزانة باريس ٦٧٦٦ ، ص ١٣ . ومثله في كتاب الفلاحة لمؤلف مجهول ، في خزانة باريس ٢٨٠٩ ، ص ٩

٣) فصل من كتاب سمر السمار في ليالي الانار في وصف ثمار سائر الاشجار. خزانة اكسفرد M. S. Sale 70 f°21

وهذه الطريقة الاخيرة هي التي كانت شائعة بمصر. وكانوا ببغداد يكتبون بحمرة في بياض. او ببياض في حمرة. والتفاح بعد في اغصانه. وذلك بان يعرّضوا موضع الكتابة للشمس اذا كان التفاح ابيض. او يستروه بالمداد اذا كان احمر. وربما تراسل المحبون بالتفاح الاحمر بعد قطفه. وهو في الاسواق. بالكتابة عليه بماء الذهب اشارة الى الصفرة والنحول من الوجد. والجواب عليه بالمداد الاسود ايذاناً بالفور والصدّ. وممن ذُكر بالكتابة عليه وهو في اشجاره وحثّه قصائد غزله وغرامه. الشاعر الملقب بشعر الزنج. وكان وقّاداً في اتون حمام ببغداد. يجيد النظم إجادة اكثر نظرائه من الشعراء المحترفين مثل ابي القاسم نصر الخبازرزي. وابي الحسين الجزّار. وابي الفرج الوأواء الدمشقي المنادي على الفواكه في دار البطيخ وغيرهم. ثم ابتُلي بالهوى فاستوضع حرفته وصار ناطوراً يحفظ البساتين. وقصد بستان التفاح الذي لا يوجد في بغداد اكثر منه تفاحاً. وصار يختار احسنه ويكتب عليه شعره وهو اخضر. ويتلطف بايصاله الى من يهواه ويبيعه عليه بما اراد دون مماكسة. ومن التفاح الاصفر الذي كتب عليه بالاحمر:

تفاحة تخبر عن بهجة اذا جا المجر راضاها
يا بؤسها، ماذا جا؟ ربها أسدها الشب فاقساها

وكتب ببياض في حمرة:

نبتُّ في الاغصان خلقةً من قلب ذي شوق واحزان
صفّرني سقم الذي لونه ينبي عن حالي واشجاني

وعلى اخرى باحمر:

تفاحة صينت كذا بدعة صفراء في لون المحبينا
زيّنها ذو كمد مدنف بدمه اذ ظلّ محزونا
فاعجب فقد حنّت لنا شاكياً وُقيت من بلواه آمينا (١

ومثل هذا الشعر من وقّاد اشهى الى الارواح من طيب رائحة التفاح. وكان بعض الظرفاء والظراف ينقشون على التفاح ما طاب لهم من النقوش قبل اهدائها. قال ابو الفرج الاصبهاني:

١) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ١: ١٢٦-١٣٠

« اهدت جارية يقال لها خِداع الى محمد بن امية وكان يهواها تفاحة مفلّجة منقوشة مطيّبة حسنة . فكتب اليها محمد :

خداع ، أهديت لنا خدعة تفاحة طيبة النشر
ما زلت ارجوك، واخشى الهوى، معتصماً بالله والصبر
حتى اتتني منك في ساعة زحزحت الاحزان عن صدري
حشوتها مسكاً وتقّشتها ونقش كفيك من السحر
حقاً لما تفاحة أهديت لو لم تكن من خُدَع الدهر[1]

ومع كل ما قيل عن تحريم التصوير في الاسلام لا نرتاب ان بعض التفاح كان يُصوَّر . واي شيء ازهى من التفاح لتزيين صور الملاح . وكان اهل فارس خصوصاً من ارغب الناس واحذقهم بالتصوير في الاسلام كما يستدلّ من بعض المخطوطات المزوّقة باقلام كتابهم المصونة الى اليوم في خزائن الغرب والشرق . وممن برز بالاجادة فيه الاستاذ الرئيس ابن العميد قال ابن مسكويه : « كان يختص بغرائب من العلوم الغامضة التي لا يدّعيها احد كعلوم الحيَل (mécanique) . ولطف كف لم يسمع بمثله . ومعرفة بدقائق علم التصاوير وتعاطٍ بديع . ولقد رأيته يتناول من مجلسه الذي يخلو فيه بثقاته واهل أُنسه التفاحة وما يجري مجراها . فيعبث بها ساعة ثم يدحرجها وعليها صورة وجه قد خطيا بظفره . لو تعمد لها غيره بالآلات المعدة وفي الايام الكثيرة ما استوفى دقائقها ولا تأتّى له مثليا . »[2]

١) الاغاني ، طبعة بولاق ، ١١ : ٢٥

٢) الثاني من الجزء الاخير من تجارب الامم لابن مسكويه ، ص ٢٧٨-٢٧٩

خانات دمشق القديمة

الخان لفظة فارسية الاصل بمعنى البيت والمنزل. ولذلك أطلقت في الاستعمال على الحانوت وهو منزل التاجر ، وعلى الفندق وهو منزل المسافر . ولا تزال الخانات بدمشق تتناول كلا المنزلين . ففيها الخانات العامة كالفنادق والاسطبلات لبعض الغرباء والمكارين وللدواب . والخانات الخاصة للتجار او الصيارف كخان اسعد باشا المشهور باتقان بنائه وجماله واتساعه . واغلب ما كانت تُعرف مثل هذه الخانات التجارية باسم الوكالة او القيسارية . وفي سنة ١٠٠٥ (١٥٩٦م) بنى مراد باشا ، والي الشام ، القيسارية المعروفة بالمرادية . قال المحبّي: « اخذ البيوت التي وراء باب البريد وعمرها وكالة حسنة . وامر ان تسكن فيها تجار سوق السباهية . . . وقال الشيخ ابو الطيب النزي في تاريخ الوكالة:

. . . ولي الشام مراد فبنى خير وكاله

والوكالة اسم للخان كما هو المعروف في عرف المصريين . والدمشقيون يسمونه قيسارية . »[1]

والصحيح ان القيسارية بدمشق كانت تُطلق خصوصاً على ما اتّسع من الدور الجامعة . تكون في وسطها غالباً بركة للماء ودكاكين او حُجَر للتجار كالاسواق يضمها سور واحد . قال ابن كثير في اخبار سنة ٧٤٧ (١٣٤٦م): « فتحت في ارل هذه السنة القيسارية التي انشأها النائب الامير يلبغا ظاهر باب الفرج . . . وداخلها قيسارية تجار . وفي وسطها بركة ومسجد وظاهرها دكاكين . واعاليها بيوت للسكنى »[2]

وكانت القياسر بدمشق اوفر من الخانات لاصطلاح التجار فيها وارباب الصناعات على اختصاص دور واسراق لهم . تنفرد بها اصحاب الطبقة الواحدة .

---

١) خلاصة الاثر ٤: ٣٥٦-٣٥٧

٢) ذيل ابن قاضي شهبة . خزانة باريس ١٥٩٨ ، ص ٧٨

كقيسارية القطن انشاء الملك المعظم[١]. وقيسارية القراسين والكفتيين. وقيسارية الرماح[٢]. وقيسارية الصوف. وقيسارية الاقباعيين . وقيسارية العبي. وقيسارية ابن البابي ، وكانت لمساكن تجار الفرنج ، ولما التهمتها النار في حريق سنة ٧٩٤ او ٧٩٨ (١٣٩٢ او ١٣٩٥م) تلف للافرنج فيها شيء كثير[٣] الى غير ذلك من القياسر العديدة التي كانت دمشق غاصّة بها . وقد زالت باسرها ولم يبقَ منها بقية وغلب اسم الخان في العهد الاخير على القيسارية ولذلك اشتهرت به قيسارية اسعد باشا واشباهها.

وكذلك كانت الخانات تسمى كثيرًا باسماء البضائع التي تباع فيها نظير خان الحرير . وخان الجوخ او الجوخية[٤]. وخان الجوار وهو الخان الذي كانت تجلب اليه الجواري من الرقيق قديماً . وخان الزيت . وخان البقسماط[٥]. وخان الحرفان[٦]. وخان البيض[٧]. وخان الشقق ويدعى ايضاً خان مخشي[٨]

وربما نُسبت الخانات الى بُناتها او المقيمين فيها او النازلين بها . كخان

---

١) تاريخ حوادث الزمان وانبائه للجزري . باريس ٦٧٣٩ ، ص ٦٨

٢) تاريخ البدر للعيني . خزانة برتيش موزيوم *Add.* 22360, f° 39

٣) الدرة المضية في الدولة الظاهرية لمحمد بن صَصَري . خزانة اكسفرد *Laud. or.* 112, f° 172 . وفي ذيل ابن شهبة ان هذا الحريق كان في سنة ٧٩٨

٤) قال المرادي في ترجمة الاديب مكي الجوخي: «قدم جده يس من حلب الى دمشق في حدود سنة ستين والف (١٦٥٠م) ونزل في خان الجوخية بدمشق في تجارته» (سلك الدرر ٤: ١٢)

٥) الثاني من ذيل السخاوي على دول الاسلام للذهبي . خزانة اكسفرد Marsh. 611, f° 144

٦) كان هذا الخان في سوق الشعرانيين الى جانب الجامع الاموي . اشترى ارضه عبد اللطيف المحبّي وعمر فيها داره وتوفي سنة ١٠٢٣ (١٦١٤ م) (خلاصة الاثر ٣: ١٩)

٧) قال ابن قاضي شهبة في اخبار سنة ٧٧٠ (١٣٦٨ م) في اوائلها فتح الخان القابل لخان البيض الذي انشأه النائب منجك ، وذكر ابن كثير انه أُوجر بسبعة عشر ألفاً (الذيل. باريس ١٥٩٨ ، ص ١٩٥)

٨) الدرة المضية لابن صصري ، ص ١٧٢–١٧٣

الخازندار عند مسجد القصب[١] وخان الزنجاري بالعقيبة[٢] وخان الحبالين[٣] وخان سليمان باشا ، ويقال له خان الحماصنة لان تجار حمص كانوا ينزلونه . وخان الزعفرنجية[٤] . الى غير ذلك من الخانات البائدة او العامرة.

وكان في الصالحية بعض خانات عُدّدت في الباب السابع من كتاب المروج السندسية في تلخيص تاريخ الصالحية لجامعه محمد بن كنان . وهو محفوظ في خزانة برلين Wetzst. II n° 1117 لخّصه من تاريخ الصالحية لجمال الدين يوسف ابن عبد الهادي الصالحي الدمشقي.

وقد تحوّلت بعض خانات دمشق قديماً الى حانات للسكر ومواخير للفسق والفجور . وفي سنة ٧٩٨ (١٣٩٥م) « أُخبر قاضي القضاة ان خاناً بالقرب من قبة الشحم فيه خمور كثيرة . يباع فيه الخمر جهاراً . فتوجه نحوه في طائفة يسيرة . فوجد الامر كما قيل . وهرب من في الخان . . . فاقتلعوا الخوابي وكانت مدفونة في الارض مملوءة خمراً . فحملت الى دار السعادة . وضرب النائب اصحاب الخان ضرباً مبرحاً . وطيف بهم »[٥] . واشتهر من هذه الخانات خان الزنجاري بظاهر العقيبة « كان فيه خواطي كثيرة وخمور ومنكرات عديدة . . . فهدمه الملك الاشرف موسى ابن العادل سنة ٦٣٥ (١٢٣٧م) وامر بعمارته مسجداً جامعاً سماه جامع التوبة »[٦] . ونظيره الخان الذي اخربه مراد المرادي المتوفى سنة ١١٣٢ (١٧٢٠م) وبنى على انقاضه مدرسته المعروفة به[٧] .

وفي كتاب الروضة الغنّاء فصل وجيز لخانات دمشق في القرن التاسع عشر ابلغها الى ١٣٩ خاناً ، ولكنه لم يسمّ منها الا ١٢ فقط . وفي سنة ١٩٠١ وجدنا بين جزازات الخزانة الظاهرية نبذة وضعها مؤلف تاريخ الصالحية السابق

١) ذيل ابن قاضي شهبة . باريس ، ١٥٩٩ ، ص ٢١٤
٢) تحفة ذوي الالباب للصفدي . باريس ٥٨٢٧ ، ص ١٥٣
٣) الدرة المضية ، ص ١٧٢
٤) الروضة الغنّاء لنعمان القساطلي ، ص ١١٠
٥) ذيل ابن قاضي شهبة ١٥٩٩ ، ص ١١٣-١١٤
٦) البداية والنهاية لابن كثير رواية الطبراني . باريس ١٥١٦ ، ص ٢٩
٧) سلك الدرر ٤ : ١٣٠

الذكر ، وهو المعروف بابن المبرّد ، في ذكر خانات دمشق في زمانه ، اي في القرن التاسع للهجرة . ويظهر انه لم يتمّها لانه لم يتجاوز في تعدادها ٦٤ خاناً فقط . ويبعد جدًا ان يكون هذا القدر وحده مجموع ما كان منها وقتئذٍ . ولم يُشر بكلمة الى ما كان في المدينة وارباضها من القياسر . واقتصر على تسمية جانب قليل من الخانات التي سردها ، وذكر ما كان يباع فيها ، واغفل بقيتها دون ان يعيّن مواقعها بالضبط . ولا يخفى ما في هذا التقصير والابهام من فوات الفائدة للمؤرخ والاثري . وهذا نصّ الصفحات الثلاث التي استنسخناها .

كتاب الاعلانات على معرفة الخانات

جمع كاتبه يوسف بن حسن بن عبد الهادي

اجزت لاولادي روايته . وكتبه يوسف بن عبد الهادي

بسم الله الرحمن الرحيم وهو حسبي

الحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين . وعلى آله وصحبه اجمعين . وبعد فهذه نبذة اذكر فيها خانات دمشق . واعلم ان فيها عدة خانات اذكرها على الترتيب

الصالحية — فيها في الجهركسية خانان . وعند البيمارستان خانان احدهما خان العنب . والثاني صار حاصلًا للخشب . وبسوق الفاكهة ستة خانات الاول دار الطعم . والثاني خان المدرسة تحته . والثالث في وسط السوق . والرابع للمدرسة براس السوق . والخامس خان ابن هواش . والسادس خان السبيل بالسكة . وكان تحت المدرسة خان هدّه الحاجب ابن مبارك وبناه حماماً

سوق صاروجا — به خان يباع به

دار البطيخ — بها ثلاثة خانات . الاول الشامي . والثاني عند باب المسجد قبلة . والثالث فوقه وبابه شامي

العنبية — بها خانان من جهة الغرب . احدهما غربي الجامع . والثاني غربي السوق من تحت صار حاصلًا للخشب

تحت القلعة — خانان . الاول تحت جامع ينبغا . والثاني في التقليين تباع فيه البضائع

بباب الفرج — خان في المضربين

بسوق العمارة — ثلاثة خانات . الاول عند الحمام تباع فيه البضائع . والثاني شرقي الحمام يقال له خان عبد الباسط . والثالث خان براس العمارة وكان تحت مقابر

الفراديس خان ابن النحاس. فقتل فيه تاجر رومي. فهدمه وبناه مدرسة.
وفوق الطيبين خان تحت الحمام
سوق مسجد القصب به عدة خانات . الاول غربي السوق على بابه بيطار . والثاني في الزقاق الشامي الذي تجاه الجامع . والثالث خان الشهابي المعد لقنول الحليبين
وبالسمة عدة خانات. الاول دار الطعم العتيقة. والثاني خان شرقيها عند الدقاقين. والثالث خان تحته في وسط السوق. وتحت خان آخر. ومن جهة الشرق خان آخر. وخان الزيت كان هناك واخدم وزال
بباب البريد خانان . الاول عند الحبس. والثاني في الاخفافيين
وعند باب الجامع الشرقي الذي بالدرج خان. وفي اول سوق السلاح خان
وفي راس سوق السروجيين اربع خانات. وتحت ذلك في الدرب تجاه الحمام خان
وفي الطريق الذي غربي جسر الزلابية وشرقي الميدان خانان
وفي سوق حكر السماق خان
وفي طريق القنوات خان
وفي البزوريين خان
وبسوق جفسق خان التكة
وبسوق باب السريجة الذي غربي باب الجابية عدة خانات. الاول الذي يترله جلّابة العيد . والثاني خان ابن المال الكبير . والثالث خان صغير بعده يباع فيه مثل الباذنجان . والرابع خان صغير غربيه. والخامس خان ابن ثريدة تباع فيه البضائع. والسادس . والسابع خان تجاهه يباع فيه القمح وغيره. والثامن خان السطل بعده. والتاسع خان يباع فيه العنب بعده
وفي الدرب الذي تحت سوق اللحامين ثلاثة خانات
وفي القصبة التي من باب المصلّى الى راس القُنيات اربعة خانات
وبباب الصغير ثلاثة خانات
وبالقابون خانان . احدهما خان السبيل
فهذه اربعة وستون خاناً (١

(١) اذا اسقطنا الخانات التي هدمت يكون مجموع الباقي ٢٦ خاناً وليس ٦٤